العظماء

هداة الإنسانية في الشرق

مجموعة كتاب

الكتاب: العظماء .. هداة الإنسانية في الشرق

الكاتب: مجموعة كتاب

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣


E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

العظماء .. هداة الإنسانية في الشرق / مجموعة كتاب
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٨١ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٣ – ٩٩٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٢٨٩ / ٢٠١٩

العظماء

هداة الإنسانية في الشرق



مقدمة

"هداة من الشرق" كتاب فريد في بابه، صدرت طبعته الأولى منذ مايقرب من ٧٠ عاما، بتحرير العالم والمؤرخ حسين مؤنس ، الذي بدأ الكتاب بالتساؤل عن حدود الشرق الذي يعنيه العنوان، مؤكدا أنها ليست حدودا جغرافية، فمراكش وهي تمتد ناحية الغرب إلى أبعد مما تمتد فرنسا وبريطانيا إنما هي جزء من الشرق، بل أنك إذا نزلت أرضها وجدت نفسك في صميم الشرق وأنت بعد على ساحل الأطلسي.

ويتساءل كذلك شرق بالنسبة إلى ماذا؟ وغرب بالقياس إلى ماذا؟ أليست أوروبا شرقًا بالنسبة إلى أمريكا؟ وأليست هذه شرقًا بالنسبة إلى الصين واليابان؟

ويضيف: "هناك عالمان مختلفان، إذا انتقل الإنسان من واحد منهما إلى الآخر أحس أنه في جو جديد، وأحس أنه بالفعل بين ناس يختلفون عن أولئك الذين خلفهم وراءه. هناك عقلية شرقية وأخرى غربية".

ويرجع حسين مؤنس هذا الاختلاف إلى موقف كل من الجانبين من الحياة، فالشرقي يحس بالأشياء على نحو يختلف عن إحساس الغربي بها، فالشجرة في نظر الشرقي غير الشجرة في نظر الغربي. الشرقي يحس أنها

شيء مكمل لوجوده، شيء «وجد» له، ولا قيمة له إلا على هذا الأساس، ومن هنا لا غرابة أن نجد أنه أكل ثمرها واستظل بظلها وأحرق خشبها، ولكنه لم يصورها ولم يدرسها ولم يقم على رعايتها إلا إذا نفعته على نحو من الإنحاء. أما في نظر الغربي فهي شيء قائم بذاته، إنها شجرة أولا ثم شيء نافع له بعد ذلك، ولهذا فقد صورها ودرسها ورعاها وبحث عن عللها وداواها، ثم انتفع بها في كل وجه بعد ذلك...

وينفى د.مؤنس ما يقال عن المشارقة وأنهم عبدوا إلهين، إله للخير وإله للشر، قائلا إنهم لم يعبدوا إلا إله الخير، أما ما يسمي بإله الشر، فهو رمز لقوي الشر التي يستعين عليها بمصدر الخير. ثم إن هذه العقيدة وما يشبهها لا تمثل طبيعة الشرقي وفكرته عن الإله ، وقد نسب المصري القديم إلى إلهه كل صفات الخير والمحبة والرفق والسلام، فكأن المعبود عند المصري القديم هو صورة الخير الخالص، هو صورة الإنسان كما ينبغي أن يكون، هو الإنسانية بمعنييها، أي النسبة إلى الإنسان وجماع الفضائل. وعند ما ارتقى عقل الشرقي اهتدى إلى أن الله هو أصل الخير ومبدع الجمال والإنسانية.

لذلك كان الشرق مهد الديانات الكبرى كلها، ولقد بقي العالم الغربي دهورًا دون عقيدة صالحة حتى أهداه الشرق دياناته الكبرى، فوجد فيها ما اطمأن إليه قلبه، لكنه لم يقبلها كما هي بل فرض عليها طبعه، ولم يسر على نهجها الصحيح إلا في قرونها الأولى، ثم ابتدع لنفسه صورة منها

سماها العالمية وهو معنى الكاثوليكية، ثم استخرج منها البروتستنتية بصورها الكثيرة التي تكاد أن تكون عقائد قومية أو محلية.

ويتناول د. عبد الحميد يونس شخصية أول من دعا إلى التوحيد، وهو أمونحتب الرابع أو إخناتون، موضحا أن عقيدته بعد التوحيد ارتكزت على دعامتين أساسيتين أولاهما الصدق في التفكير والتعبير وإيثار المعقول والظاهر على الخرافي والخفي، وثانيتهما البساطة التي تحتفل بالفطرة الطبيعية، وتنأى عن التعقيد والغرابة والتمويه.. كان إخناتون يقول عن نفسه إنه يعيش في الحق الذي آمن به وأنفق حياته داعية إليه، وانتظم توحيده الخلائق كلها التي خلقها إله واحد أحد كما انتظم التسوية بين الناس في الدنيا تساويهم أمام هذا الإله الواحد الأحد ومن هنا كانت دعوته بعيدة المدى لا تتصل بما فوق الوجود، وبما بعد الوجود فقط ولكنها تنطوي على فلسفة سياسية تناقض ما جرى العرف عليه في العصرين القديم والوسيط وكانت إيجابية في الإكبار من شأن الحياة والأحياء تحقق شخصية الفرد في ذاته وفي إحساسه بنفسه، وفي إتقانه لعمله، وفي علاقته بغيره، وتحقق ما يقارب الوحدة العالمية التي تقوم على التسامح لا على الغلب والاستئثار بالخير.

ولم يخل عهد إخناتون من الصراع فقد اتصل الكهنة بالخونة في قصره، ولم يفطن كل هؤلاء إلى رسالته التي تتضمن السلام والمحبة بين الناس جميعًا، ورأوا فيه حجر عثرة في وجه المصالح الخاصة التي جردوا منها، وانضم إليهم كل الذين عجزت عقولهم عن الاقتناع بالدين الجديد

والاتجاه الجديد في الحياة، والذين كانوا يحرصون على ما لقنوه من خرافة وغيبية جعلتهم يحتفلون بما بعد الموت أكثر من احتفالهم بالحياة، والتقى الكل على هدف واحد، واضطر إخناتون أن يشرك معه في الملك زوج ابنته «ساكرع» ثم لم تمض إلا فترة قصيرة حتى تم عزله بعد أن حكم سبع عشرة سنة.

وقد انتصر إخناتون على نفسه، وعرف لحياته غاية أسمى مما كان يستهدف معاصروه وأسلافه حتى من الملوك، وسجل اسمه بين المفكرين الأحرار، ودعا إلى التوحيد والتحرر من الكهنوت والخرافة، ووصل الفن بالطبيعة وبالحياة الإنسانية، وأكد التعاطف بين بني البشر كافة، وآمن بإله واحد أحد لا شريك له، خلق الأحياء والكائنات يرعاها بعنايته، ويظلها برحمته وارتفع عن غريزة التناحر، فإذا فشل في الاحتفاظ بعرشه فقد نجح في السمو بالعقل الإنساني، وأصبح أول من دعا إلى توحيد الآلهة في التاريخ كله.

يقول الأستاذ علي أدهم إن الآراء اختلفت في بوذا، فهل هو موجد دين أو خالق فلسفة حياة، و يتوقف الجواب عن ذلك على مدى فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة، ويؤكد على أن أتباعه هم من اعتبروه إلها بينما هو لم يقل بذلك، فهو كان يرى خلاص الإنسان يتوقف عليه نفسه لا على الآلهة، والإنسان في رأي بوذا هو صانع مصيره، والبوذية تحاول إنقاذنا من حبائل الشر، إذ تراه أصيلا في الوجود وليس سببه خطيئة الإنسان، وحيثما يوجد الوجود يصحبه الشر، وتشيد البوذية بفضائل

التواضع والصبر والاحتمال والعطف والشفقة ورقة الأخلاق وعذوبة النفس وصفاء الطبع والعفة والطهارة وإيثار التضحية ونبذ الأنانية، على أن الاخلاق الفاضلة ليست عند البوذيين كافية للوصول إلى النرفانة.

يقول د. يحيي الخشاب إن الفرس اتبعوا دين زردشت قبل الإسلام. فلما دخلوا في دين الله، ثبتت قلة قليلة منهم على دين آبائهم، وهم من يسمون بالبرسيين.. هذا الدين يعرف بعدة أسماء، منها «الثنائية» لأن أتباع زردشت قالوا بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر. ومنها «المزدية»، من لفظ «أهورامزاد» الذي أطلقوه على إله الخير. ومنها «المجوسية»، لأن هذا الدين عرف في قبيلة المجوس، أول ما عرف في إيران، ومنها «الزردشتية» نسبة إلى زردشت. وسموه «عبادة النار»، لأن المظهر الخاص بالعبادة في هذا الدين يتم في بيت النار الذي يحل محل الكنيسة عند النصارى والمسجد عند المسلمين.

أما مشاركة د.سهير القلماوي في الكتاب تمثلت في دراستها عن الحكيم الصيني كونفوشيوس، وترى إن أقواله في الملك الصالح تعد أقدم ما نصح به فيلسوف حاكمًا. وهي تعاليم بسيطة عملية لا رمز فيها ولا صورة أدبية بل ولا فلسفة. يقول مثلا «إن الشعب يمكن أن يرغم على أن يسير سيرة معينة ولكنه لا يمكن أن يرغم على الإيمان بالسبب في ذلك.» وهو ينصح الشعب قائلا: «إذا عمت الفوضى فإنه يجدر بالعاقل أن يتوارى، ولكن إذا علت كلمة القانون وساد النظام فمن الواجب على العاقل أن يظهر. وفي الدولة التي تحكم بالأسس السليمة يكون الفقر والتخلف في

المنزلة عارًا ولكن في الدولة التي تحكم حكمًا جائرًا فإن الغنى والرفعة هما العار".

وتذهب د.سهير إلى أن الغربيين ظلموا كونفوشيوس حينما درسوه، فلقد خلعوه من إطاره– الصين– وحاولوا أن يجدوا له فلسفة أو دينًا فلم يجدوا، وحاولوا أن يضعوه ضمن المصلحين أو الزاهدين أو الحالمين فلم يجدوا له مكانًا بين هؤلاء جميعًا. حتى عرفوا اللغة الصينية وحتى عاشوا في الصين فاستطاعوا أن يفهموا تعاليمه في إطارها الحقيقي وفي جوها الذي تتنفس فيه.

وبعد الحكماء الشرقيين الأربعة ينتهي الكتاب بدراستين عن إثنين من الأنبياء، فيتحدث الدكتور عبد العزيز عبد المجيد عن المسيح، الذي يرى أن ثورة المسيح الهادئة لم تكن مقصورة على الاحتكار الديني الذي خص بنو إسرائيل أنفسهم به، ولكنها كانت كذلك ضد النظام الاقتصادي الشره الذي نتج عنه الربا، والتنافس على جمع المال بأي أسلوب وفي أي مكان حتى في الهيكل المقدس نفسه ، وثورته على النظام الاقتصادي كانت جزءًا من الصورة التي رسمها للمملكة السماوية الفاضلة التي كان يدعو إليها، فهي مملكة حب وإخاء لأن كل الناس أبناء الله، وكل ممتلكاتهم تدخل ضمن هذه المملكة.

ومهما يكن من خلاف بين المسلمين والمسيحيين في أمر صلبه ورفعه، فإنها مسألة شكلية في نظر الذين يعتبرون رسالة الأديان رسالة

اجتماعية أخلاقية إصلاحية، وأن عظمة أصحابها مقرونة دائمًا بعظمة الرسالة نفسها، وأثرها الإصلاحي في حياة المجتمع.

في آخر فصول الكتاب يرى الأستاذ مُحَّد مصطفى عطا أن أروع جانب إنساني، أراده النبي مُحَّد عليه الصلاة والسلام هو التوحيد أو عبادة إله واحد، لا يحده زمان ولا مكان، ولا يرمز إليه بصنم، إنه بهذه الدعوة كرم العقل الإنساني، وقضى على الشرك، وأزال عبادة الوثن؛ تلك الوصمة التي كانت نقطة سوداء في جبين الإنسان البدائي، والنبي مُحَّد وحده؛ بأسلوبه، وقوة روحه، وتأييده، ومجاهدته، هو الذي استطاع أن يحطم هذه الأوثان، وأن يردد في الجزيرة العربية؛ شرقها وغربها وشمالها وجنوبها صوت التوحيد، صوت «لا إله إلا الله» «والله أحمد» و «الله الصمد».

ويصف النبي مُحَّد بأنه هو الإنسان الذي ترفعه إنسانيته إلى أعلى مراتب النبل والخلق الرفيع؛ فهو يتواضع ولا يتضع، وهو يشارك في الحياة لأنه بشر، ولأنه قدوة، وهو يصبر ويكافح ويلقى الأذى، لأنه وضع لنفسه برنامجًا في الحياة فأنفذه على خير ما يكون؛ حتى قابل ربه بعد أن جاوز الستين من عمره في حساب الزمن، ولكنها تعد قرونًا وقرونًا في عداد الخلود والبقاء.

ومن حق القارىء أن يسأل ما هى الرسالة الضمنية التى يحملها هذا الكتاب، ولعلها ببساطة تتمثل في أنك، وإن كنت مسلما مؤمنا فإن من المهم جدا أن تعرف أن فى العالم الواسع حولنا أديانا ومعتقدات اخرى بعضها أديان سماوية وبعضها أديان ومعتقدات غير سماوية يدين بها ويعتنقها ملايين البشر فى الهند والصين وغيرهما من بلاد العالم، لها قيمها وأفكارها السامية، وأن العالم عرف قبل الأديان السماوية بآلاف السنين أديانا وعبادات، بل وتوحيدا للإله نادى به اخناتون فى مصر القديمة ، إن إدراك هذا كله، وفهم واحترام معتقدات الآخرين، والإيمان بقيم التسامح والتفاعل مع من يختلفون عنك، هو أهم ثمار قراءة هذا الكتاب، الذي يدل عنوانه على موضوعه وعلى الهدف منه، فالفصول الستة يتحدث كل منها عن شخص عظيم في تاريخ البشرية، كلهم من الشرق، وكلهم هداة، سواء كانت أقوالهم ورسالاتهم من بنات أفكارهم وحكمتهم أو وحيا من السماء.

الناشر

هذا الشرق

د.حسين مؤنس

ما حدود هذا الشرق الذي نعنيه؟ أين يبدأ وأين ينتهي؟ أهو يبدأ حقًا عند حدودنا الغربية؟ هل يفصله عن الغرب ذلك الخط الذي توهمه الرومان قاطعًا من وسط ما يعرف الآن بيوغوسلافيا إلى الساحل الغربي لبرقه؟ وإذا صح هذا فأين يكون المغرب كله؟ في الشرق أو في الغرب؟ وأين تكون اليونان ورومانيا وبلغاريا وما إليها؟ إن أي أنسان لا يتردد في القول بأن مراكش، وهي تمتد ناحية الغرب إلى أبعد مما تمتد فرنسا وبريطانيا إنما هي جزء من الشرق، بل أنك إذا نزلت أرضها وجدت نفسك في صميم الشرق وأنت بعد على ساحل الأطلسي.

ثم، إن اليونان تأبى إلا أن تكون في الغرب، بل هي في صميم الغرب حتى لقد نقلها المنطق السياسي المعاصر إلى ساحل الأطلسي، فتركت مكانها وأخذت مجلسها بين أمم ما يسمى بحلف الأطلسي.

وأين نضع أستراليا ونيوزيلندا، وهما، كما يعلم الناس توغلان في الشرق إلى أبعد مما تبلغه أقصى بلاد الشرق الأقصى ولو استقام هذا التعبير– ومع ذلك فإنهما من بلاد الغرب ولاشك.

ثم نسأل: ما الذي نعنيه بقولنا: الشرق؟ هل هو طراز حياة؟ هل هو نظرة إلى الحياة؟ هل هو عالم معين واضح المعالم، نجد فيه ما لا نجده في غيره؟

إذا صح هذا، فما هو الشيء الذي نجده في الغرب ولا نجده في الشرق؟ طبيعة جغرافية خاصة تتمثل في الجو البارد والجبال الساحقة والمروج النضرة والسواحل الحافلة بالمرافئ؟ نظام اجتماعي متقارب يقوم على وحدات صغيرة كل منهما مستقل بذاته، وثم تجمعها بعد ذلك وحدات اجتماعية أكبر، هي الأمم؟ نظام سياسي متشابه يقوم على الشورى وحرية الرأي وسيادة الشعب والقانون؟ لغة ترجع في بعض أصولها إلى الإغريقية والرمانية؟ عقيدة دينية معينة؟

هذا كله نجده في الشرق، وهو لم يجد عليه هذا العصر فقط نتيجة لغلبة الغرب، بل هو وجد فيه من قرون طويلة.

وهذا الكلام يصح أيضًا على الشرق: لسنا نجد فيه شيئًا نحسب أنه يميزه على غيره إلا وجدناه في ذلك الغير.. ثم، ما الذي نعنيه إذا قلنا هذا شرق وذلك غرب؟ أين هو المقياس الجغرافي الذي نستطيع أن نبني عليه هذا التقسيم؟ شرحه بالنسبة إلى ماذا؟ وغرب بالقياس إلى ماذا؟ هل لهذه الكرة التي نعيش فيها شرق وغرب؟ أليست أوروبا شرقًا بالنسبة إلى أمريكا؟ وأليست هذه شرقًا بالنسبة إلى الصين واليابان؟

ونحن إذ نقول إننا في الشرق الأدنى لا نسأل أنفسنا: أدنى إلى ماذا؟ هل هناك مركز يتخذ أساسًا للبعد والقرب؟ إن الأمريكي إذ يصف اليابان مثلا بأنها من الشرق الأقصى ينسى أنها بالنسبة له– بل لأوروبا من بعض الوجوه– شرقًا أدنى...!

ولكن هناك مع ذلك كله شرقًا وغربًا.

هناك عالمان مختلفان، إذا انتقل الإنسان من واحد منهما إلى الآخر أحس أنه في جو جديد، وأحس أنه بالفعل بين ناس يختلفون عن أولئك الذين خلفهم وراءه.

هناك إحساس في قلوب أهل كل عالم من هذين أنه من هذا الفريق وليس من غيره.

هناك عقلية شرقية وأخرى غربية.

وأنت إذ تستمع إلى شرقي يتحدث تشعر أنه شرقي، ولو تحدث بالإنجليزية مثلا كما يتحدثها أستاذ للأدب الإنجليزي في جامعة أوكسفورد.

ولو أن غربيًا درس اللغة العربية حتى ساوي أهلها في الإلمام بها، ثم ترجم إلى لغته شيئًا من آثار أهلها لشعرت في كل عبارة من عباراته أنه غربي في الصميم.

وهذه ترجمة ريكرت الألمانية لمقامات الحريري، لا تشعر وأنت تقرؤها بطعم كلام الحريري، وإنما أنت تقرأ لألماني يتحدث عن الشرق.

وهذا هو إدوارد لين، يصف قاهرة القرن الماضي، بعد أن قضى فيها سنوات طويلة يتحدث العربية ويعيش عيشة المصريين: إنك تشعر أن هذه ليست القاهرة، بل بلد شرقي كما يتراءى من خلال نافذة إنجليزية...

والأمر على خلاف ذلك إذا ترجم إنجليزي عن الفرنسية، أو إسباني عن الفرنسية، فأنك لا تشعر باختلاف في الوقع أو الطعم، فيما خلا ذلك الانحراف البسيط الذي لا مفر منه عند انتقال المعاني من لسان إلى لسان.

ما سر هذا الاختلاف؟

السر في الإحساس، وفي النظرة إلى الحياة، وفي موقف كل من الجانبين من الحياة...

الشرقي يحس بالأشياء على نحو يختلف عن إحساس الغربي بها، فالشجرة في نظر الشرقي غير الشجرة في نظر الغربي. الشرقي يحس أنها شيء مكمل لوجوده، شيء «وجد» له، ولا قيمة له إلا على هذا الأساس، ومن هنا لا غرابة أن نجد أنه أكل ثمرها واستظل بظلها وأحرق خشبها، ولكنه لم يصورها ولم يدرسها ولم يقم على رعايتها إلا إذا نفعته على نحو من الإنحاء.

أما في نظر الغربي فهي شيء قائم بذاته، إنها شجرة أولا ثم شيء نافع له بعد ذلك، ولهذا فقد صورها ودرسها ورعاها وبحث عن عللها وداواها، ثم انتفع بها في كل وجه بعد ذلك...

وهذه النظرة إلى الشجرة تنطبق– على كل الماديات، فالشرقي ينظر إلى كل ما في الوجود على أنه خلق له وحده، ومن حقه أن يستمتع به، فأبسط شرقي يشعر شعورًا حقيقيًا أنه أهل للاستمتاع بأحسن ما في الوجود بل من حقه ذلك، فإذا لم يستطع ذلك، فليس هذا راجعًا لعلة فيه أو لعلة في الأشياء، بل لعلل أخرى، علل خفية يشعر أنها هي التي تنظم العلاقة بين الإنسان وما في الوجود... ومن ثم فهو لا يكافح في سبيل الحصول على الثروة مثلا، ولماذا يكافح للحصول على شيء هو في ملكه بمحض الوجود، ولكن قوى أخرى هي التي تعطي وتمنع، وتحرم وتبيح؟ فإذا كان لابد من كفاح فلمواجهة ضرورة عاجلة: سد الرمق أو حماية الحياة أو المدافعة عن الأرض والدار...

ولهذا لا يهاجر الشرقي إلا على أمان وضمان، وكل الشعوب الشرقية التي عرفت الهجرة، لم تفعل ذلك إلا على ثقة من أنها تهاجر إلى عالم أحسن: لهذا هاجر العرب من جزيرتهم إلى السهول المحيطة بها، وهاجر الهنود من الهضاب الجنوبية إلى سهول الهند الصينية وجزائر الهند الشرقية وهاجر اللبنانيون إلى مصر أو أمريكا...

ولهذا أيضًا لا يشعر الشرقي بدافع إلى استكشاف المجهول من نواحي هذه الأرض. وما الذي يدفعه إلى ركوب البحار لاستكشاف ما وراءها، إذا كان المفروض أن ما وراءها هذا ملك له، لا تحول بينه وبين الاستمتاع به إلا قوة خفية، قوة عليا، تستطيع إذا أرادت أن تكشف له النقاب عما هناك وتحمله إليه..؟

بل هو قد أيقن أنه ليس وراء هذه البحار شيء، ليس وراءها غير الظلمات، إذ ليس من المعقول أن يكون هناك شيء، ثم لا تأتيه القوة العليا به وتلقى به في حجرة... أما الغربي فيشعر أنه منفصل عن الحياة.

الشرقي يشعر أنه جزء منها، يشعر أنه والشجرة والعصفور شيء واحد، كما تشعر أنت بأنك وملابسك وبيتك وآنية بيتك شيء واحد، كلها ملكك ونفسك ملكك أيضًا...

إن الغربي يشعر أنه في مواجهة الحياة، لا جزء منها، ولهذا فهو يشعر أنها تتحداه، وأن عليه إذا أراد أن يعيش أن يقبل هذا التحدي، فإذا لم يقبله فلا أمل له في الحياة...

الحياة في نظر الغربي دعوة إلى المبارزة.

والحياة في نظر الشرقي لا تستحق عناء المبارزة...

الحياة في نظر الشرقي شيء مألوف، متاع مألوف، آنية بيت... أما في نظر الغربي فهي شيء غريب، متاع عسير الإدراك، ميدان كفاح...

فالشرقي إذ يخرج إلى الحياة يخرج ليعيش.

والغربي إذ يخرج لها يخرج ليغالب، ليحارب...

الشرقي يشعر أن الطبيعي في الحياة أن يرتاح وينعم، فإذا لم يوفق إلى ذلك فلعلة ما... لسبب ما...

والغربي يشعر أن الطبيعي أن يشقى وأن يحرم، فإذا أراد تغيير هذا الوضع، فعليه أن يغيره بيده.

ولهذا فقد خاض الغربي معركة الحياة كاملة، وأخذ كل شيء غلابا: قطع السهول والوديان وتوغل في الجبال وغاص إلى أعماق البحار، وركب الأمواج، وقهر الصحارى، وحلق في الهواء، ونبش الأرض واستخرج ما فيها، ولم يدع قوة في الطبيعة إلا توصل إلى سرها...

وهو رغم ذلك كله لا زال يشعر أنه في حرب مع الحياة: في كل يوم نسمع أن غربيًا ما قهر قمة الجبل الفلاني واعتلاها، وأن آخر حلق في الجو إلى أبعد ما حلق غيره، أو أنه يصنع قمرًا صناعيًا ليطلقه في الجو حول الأرض ليستكشف بواسطته سر الفضاء، أو أنه عثر على الفيروس الفلاني، وهكذا تتجدد المعركة بالنسبة له كل يوم...

ونحن المشارقة نقرأ هذا ونتعجب، لأننا لا نشعر بأن الحياة تتحدانا، وبأننا لابد أن نقبل هذا التحدي، ونبرز للكفاح.

إن الشرقي قد يرى الجبل ألف مرة، دون أن يكترث لقمته العالية، أما الغربي، فيشعر أنها تتحداه، يشعر أنها عدو، وأن عليه أن يقهرها، فلا يزال يحاول حتى يصل إلى القمة، ولقد يهلك في عملية الصعود عشرات ولكن التحدي يظل قائمًا، وكلما هلك في المحاولة واحد قام واحد محله، لأن المسألة مسألة حرب.

ولقد يكون في أحراش إفريقية سبع آمن، لا يصيب الناس بضرر إلا إذا قاربوه، وقد أعتاد الناس وجوده حتى لا يحفل له أحد منهم، ولكن الغربي في لندن مثلا، يشعر أن هذا السبع يتحداه! ويتجشم عناء الرحلة إلى المجاهل والأحراش، ولا يهدأ له بال حتى يأتي بجلده ورأسه، ويعلقها على الحائط ويستريح.

ولقد يمر الشرقي بالبحر، فلا يشعر إلا أنه أمواج تترامى إلى غير نهاية ولا يشوقه أن يعرف ما وراء هذا الموج، ولا يركب البحر إلا إذا قسرته على ذلك ضرورة، ولا يصل إلى الضفة الأخرى إلا إذا ساقته إلى ذلك مصادفة. أما الغربي فيشعر أن الأمواج تتحداه، ويترامى به الشوق إلى ما وراء هذا الموج، ولا يزال يحاول حتى يصل إلى ذلك المجهول ويلمسه بيديه...

وليس هذا شأن الغربي في عالم اليوم فحسب، بل كان ذلك دأبه من أقدم العصور.

كانت هذه هي الروح التي عاش بها الإغريق والرومان. فأما عن الإغريق فهم الذين شعروا بذلك التحدي، وهم أول من قبله وخاض معركة الحياة صراعًا وراء المجهول بل المجاهيل...

وكانوا يشعرون بأنهم غرباء عن الحياة، وأنها تعاديهم، وأن عليهم أن يقهروها، وإلا قضت عليهم...

بل أنهم لم يقفوا صاغرين أمام القوى الخفية التي جبرت الشرقيين منذ الأزل، فصارحوا آلهتهم بالعداء، وقدروا أنها تكرههم وتحقد عليهم وتغار منهم، ودخل أبطالهم في صراع معها يبدو في أقاصيص الألياذة والأوديسا وقد أغراهم البحر بركوبه، فما زالوا يعبرون موجًا بعد موج حتى كشفوا البحر الأبيض كله.

وقد يقال إن الفينيقيين، وهم مشارقة، سبقوهم إلى ذلك، وذلك صحيح في الظاهر، أما في الحقيقة فهناك خلاف بين بيْن رحلات الفينيقيين ورحلات الإغريق. فالفينيقي لم يركب البحر ليستكشف بل ليتاجر، وهو قد وصل إلى إسبانيا في طلب القصدير، وإلى إنجلترا في طلب الحديد، فهو قد سار في طريق معروف له طلبًا لشيء معين. وليس كذلك الإغريقي، فهو قد ركب البحر ليستكشف، ليرى أرضًا جديدة وناسًا آخرين، الفينيقي ذهب وراء المال والإغريقي ذهب وراء المجهول...

وكذلك كان الرومان: كانوا حفنة من الناس تحدت الأرض ومن عليها، وخرجت تفتح وتقتحم، يملأ قلوبها فهم إلى الحياة ورغبة في إذلالها.

وقد يقال إن العرب، وهم مشارقة، فعلوا ما فعله الرومان، بل فاقوهم في مدى التوسع وسرعة الفتوح...

ولكن بين الحيين فارق عظيم.

لقد خرج الروماني من بلاده يقتحم المجهول...

أما العربي فقد خرج يجوس خلال المعلوم، خرج بعد أن استوثق من أن القوة العليا معه، تقوده وتنصره، وتذلل له العسير وتفتح عليه البلاد لم يكن يعلم إلا القليل عن هذه البلاد، ولكنه كان واثقًا من أنها ستصير إليه، وأن الموت إذا غاله دونها انتقل إلى ما هو أحسن منها وأجمل، انتقل إلى جنة الخالدين.

وإن الذي يقرأ أخبار فتوح العرب لا يدهش من عظمة هذه الفتوح بقدر ما يتعجب من نظرة العربي إليها. فليست الغرابة في فتحه فارس، وإنما الغرابة في أنه نظر إلى فتحها، وكأنه شيء بسيط عادي كان لا يمكن إلا أن يكون! وهو إذا فرغ من فتح المغرب لم يشعر أنه حقق أمرًا مستحيلًا، بل اتجه بهمته إلى الفتح الذي يليه، وكأنه مسافر في رحلة طويلة ذات مراحل، كلما قطع مرحلة استراح ليلة، ثم نهض من الغد لمواصلة السير.

وخلاصة ذلك الكلام هي أن الشرقي لا يرى غير المعلوم، في حين أن الغربي يعيش عمره كله ونظره متجه إلى المجهول...

ونحب أن نسأل: ما السر في ذلك الخلاف بين الجانبين؟

ما السر في هذا الاختلاف في الطبع والإحساس والنظرة إلى الحياة والموقف من الوجود؟

أهما نوعان من البشر بينهما من الخلاف ما بين حيوان وحيوان؟ ربما كان ذلك صحيحًا فيما يتصل بأجيال البشر الأولى. ولسنا نستطيع

القطع هنا برأي، لأن أصول البشر تتلاشى أمام أنظارنا في ليل الزمان الطويل..

أما في العصور التاريخية فذلك ليس بصحيح. لأن أولئك الذين نسميهم اليوم بالغربيين أصولهم شرقية محققة على التاريخ. فهم هاجروا في أزمان سحيقة في القدم من قلب آسيا إلى بلاد الشمال الأوروبي، واستقروا فيما يعرف اليوم باسكندريناوه وفنلندا، ثم زحفوا إلى الجنوب واستقروا فيما يعرف الآن بألمانيا، وهناك انقضت عليهم دهور متطاولة...

لا ندري كم لبثوا على الدهر هناك، ولكن الغالب أنهم قطعوا هناك قرونًا كثيرة، يذهب بعض المؤرخين إلى أنها تبلغ العشرين وتزيد...

قضوا ذلك العمر الطويل كله في بلاد قاسية كلها أحراش وغابات وثلوج وبحار ومستنقعات. بلاد تتلبد سماؤها بالغيوم وتغطي أرضها الثلوج معظم العام. بلاد تغطيها غابات تحفل بالوحش الكاسر، من الذئب العقور الذي لا يبالى بشيء إذا عضه الجوع إلى الدب الرهيب.

وفي هذه الأعصر كان ما بين شمال الهند وساحل البلطيق أجمة واحدة يمرح بين أشجارها السوامق الأسد الأسيوي الذي تلاشى– أو كاد– اليوم...

في مثل هذه البيئة لا يمكن أن يشعر الإنسان بأن الحياة صديق، أو أنه في رحابها في بيت مألوف...

حياة ينوشها الموت من كل جانب، وتعتورها الأخطار في كل خطوة حياة إذا أنجب الإنسان فيها عشرة من الأولاد تخطفت المنون تسعة ولم ينج العاشر إلا بشق النفس. حياة لا ينجو من معاطبها إلا الشديد البأس الأكول الذي لا يقل ضراوة عما يغالبه من الوحوش. ولقد وصف لنا المؤرخ تاكيتوس أولئك الناس في مواطنهم تلك في كتابه «جرمانيا» وتحدث عن ضراوتهم وبسالتهم، واحتمالهم قسوة الجو حتى لكان الواحد منهم يكسر الثلج الذي يغطي مياه البحيرات في الشتاء، ثم يغوص فيه!

ونحن إذ نقرأ كلام تاكيتوس نشعر أن أولئك الناس كانوا يعيشون في خوف دائم، وأنهم كانوا على الأهبة للهجوم على الدوام، وأنهم كانوا يشعرون أن الموت يتربص بهم خلف كل شجرة ووراء كل أكمة، وراء كل مجهول لهم هكذا بدأت الحرب بينهم وبين المجهول!

والإنسان لا يخشى ما يراه بقدر ما يخشى ما لا يراه. فما دام عدوك بمرأى منك فأنت منه في بعض الأمان، فإذا اختفى عن عينيك فإنك لن تزال في قلق حتى تراه...

وهذه المجاهيل التي عاش ذلك الغربي القديم يرقبها ليست من النوع الذي يظل مجهولا أبد الآبدين، وإنما كشفها رهين بالجهد والصبر والشجاعة والتصميم.

فإذا نزلت قبيلة منهم ناحية لم تطمئن فيها حتى تكشف موضعها، ولا يزال أفرادها يطوفون باحثين وراء الأشجار وخلف الآكام حتى يطمئنوا إلى ما وراءها، وهنا فقط تطيب لهم الحياة...

ثم تتكاثر جموعهم مع الزمن وتملأ الحيز المعلوم، ويضطر فريق منهم إلى الهجرة إلى حيز مجهول، وتبدأ عملية الاستكشاف.. وكما طبعت الحياة الثعلب الخوف والحذر واليقظة والترقب، فقد فرضت عليهم هذه الحياة مثل تلك الصفات.

ومن هنا أيضًا تولد في نفوسهم حب الحياة، وإن كان ذلك يبدو وكأنه من المفارقات...

ذلك أن الحياة لا تدرك عنده إلا بالمشقة والنصب ومعاناة الخطوب، فأصبحت عزيزة عليه، وكل عسير عزيز. وهو يعشق هذه الحياة على قدر ما يشقى في سبيلها، فبينما تترامى الحياة عند أقدام الشرقي، فيعتادها ويزهد فيها، يترامى الغربي في طلاب الحياة، ويعاني من قسوتها م يضنيه فإذا ظفر بها أقبل عليها إقبال الصادي على الماء، أصبحت الحياة في ذاتها غاية الغايات في حسابه، في حين اعتاد الشرقي الحياة فملها؟ وتطلع بنظره إلى ما وراء الحياة...

ثم إن الطبيعة في تلك النواحي تلبس على مر العام أثوابًا متباينة تبعث العجب في القلب طورًا بعد طور..

ففي فترة من العام يبدو كل شيء وكأنه موات: ظلام وأمطار وثلوج وبرد وبروق ورعود.

ثم تنجاب الغمرات وتتلاشى الثلوج ويخضر الشجر وتغرد الطيور ويطلع الزهر وتصبح الطبيعة فتنة للناظرين... ثم يقبل الصيف وتبدو الشمس في روعتها الكاملة، وتثمر الأشجار ويشيع الدفء وتخرج الأرانب والسناقر من حجورها ويصدح الصرار ويضحك الكون كله...

ثم يقبل الخريف فتذبل الشمس ويحمر ورق الشجر وترحل الطير وتسقط الأمطار وتصفر الريح وتستكن الوحوش في أوجارها وكهوفها وسراديبها وتصفر الرياح... هذا كله يلفت النظر ويستدرج الانتباه ويبعث على التأمل والتفكير...

يخضر الشجر، فيكف أخضر؟ هذه الورقة التي نبتت كيف هي؟ هذه الزهرة التي نجمت كيف نجمت؟ هذه السماء التي كانت سنجابية اللون كيف أصبحت بلون اللازورد؟ وهذا الماء الذي كان أبيض كالقطن الرقيق أو صلبًا كالزجاج كيف صار سائلا رقراقًا؟

ذلك كله يبعث على العجب والأعجاب، والأعجاب يدعو إلى الحب، والحب يحفز على المحاكاة، ومحاكاة الطبيعة هي أصل الفنون...

قارن ذلك بغلام مصري أو هندي أو عراقي: ينشأ في دنيا خضراء ولن تزال خضراء ما عاش، كيف يدهش، كيف يتعجب، كيف يعجب، كيف يحب هذه الطبيعة، كيف يتحرج في نفسه حافز المحاكاة...

إن الزهرة تنبت هناك من تحت الثلج، من تحت المجهول... أما الزهرة هنا فتطلع أمام العين. وهي تحت البصر طوال العام، فكيف يتجدد الشوق إليها؟ وكيف تطلبها اليد لتفتحها لترى ما فيها وكيف طفرت إلى الوجود...؟

هناك يوجد دائمًا مجهول لابد من كشفه، وأشياء تأتي من ذلك المجهول، ولابد من أن يعرف الإنسان كيف أتت... وهنا لا يوجد شيء مجهول، كل شيء كان ولن يزال على هذه الصورة.

هناك تتجمع عوامل الخوف والقلق والحيرة والتساؤل..

وهنا عالم الاطمئنان والاستقرار، عالم المعروف الذي تراه العين، وليس وراءه ما يدعو إلى تساؤل واستفهام..

هناك تفيض النفس بعوامل الخوف والتحفز والتطلع..

وهنا يفيض القلب بالسكون والاطمئنان...

لقد عرف الألمان ذلك في أنفسهم، وقالوا إن الذي يدفع الألماني إلى الحركة والنشاط والبحث والتنقيب إنما هو القلق الذي يخامر النفس دوامًا، ويدفع صاحبه إلى الحركة والنشاط، ويقذف به في المصائب والحروب...

وهذا القلق الدائم من شأنه أن يضعف الإيمان، فإن الذي يؤمن لا تستبد به المخاوف استبدادها بمن خلا قلبه من الإيمان. والإنسان جسد

وروح، وإذا لم تجد الروح ما تتصل به وتطمئن إليه من القوى الروحية التي تشبه مادتها، ظلت في هم ونصب، ولم تعرف إلى أين تسير.

وقد يحسب الناس أن الغربي عرف ذلك الأيمان المطلق الذي عرفه الشرقي، والذي سنتحدث عنه بعد قليل، والواقع أنه لم يعرفه إلا في النادر الذي لا يمكن القياس عليه.

إن إيمان الغربي معلق دائمًا بشيء، متجسد أبدًا في صورة أو هيئة أو شيء ملموس. ولقد كانت أوروبا في أشد عصورها تدينًا وإيمانًا، وهي العصور الوسطى، تؤمن بالكنيسة أكثر مما تؤمن بما ترمز إليه الكنيسة تؤمن بحجارة الكنيسة وتماثيلها وصورها أكثر مما تؤمن بالله، ولهذا فقد أفرغوا الأموال على بناء الكنائس، وأسرفوا في زينتها، حتى لتجد بلادًا كانت صغيرة مثل بيزا وسبينا وشارنز وأميان وكولونيا وكانتربري وسنتياجو دي كومبو ستيلا أنشأت من الكنائس ما تعجز عن بنائه ماليات الدول.

وأنت إذ تتأملها تشعر بالجمال والفن والفخامة قبل أن تشعر بالأيمان، لأن الذين بنوها تكلفوا ذلك كله ليشعروا أنفسهم بأيمان لا يجدونه في قلوبهم، فهي على هذا دلائل على قلة الأيمان. ولو أنهم كانوا يؤمنون حقًا ما تكلفوا ذلك كله، ولا يكون التكلف إلا حيث ينعدم الصدق. ولعل قبة شيخ تراها ساذجة متواضعة قائمة بمفردها في الريف وقد تهدمت جوانبها أدل على الأيمان وابعث على الرهبة من جامع فخم ضخم لا تكاد العين تصل إلى ذروة مئذنته، لأن الذين أقاموا القبة أقاموها بقلوبهم لشيخ يؤمنون به ويحبونه، أما الذي تأنق في بناء الجامع وأعلى

صرحه فيغلب أن يكون سلطانًا لم يدع موبقًا إلا أدخل فيه، وأحس في قلبه بفراغ هائل، فبني شيئًا هائلا ليملأ به ذلك الفراغ...

وقد أخذت مسألة الشكل في العقيدة الأوربية أهمية لا يعرفها الشرقي، ولا يصدق أنها يمكن أن تكون، فلكل طبقة من الرهبان ورجال الدين لباس خاص لا تستقيم الدرجة الدينية بدونه، وهي تتفاوت شكلا وموضوعًا بنسبة مكان صاحبها في الأكليروس، والمفروض أن كل لباس يمثل نسبة من الأيمان، فأيمان القس الصغير الذي يرعى بيعة صغيرة في الريف لا يمكن أن يقاس إلى إيمان كاردينال عظيم من فحول الكنيسة، لأن راعى البيعة يلبس مسوحًا متواضعًا من الصوف، أما الكاردينال فيتدثر بطيلسان خوصه طيلسان من الحرير والمخمل المحليين بالذهب والحجارة الكريمة، ولم يعرف الشرق هذا لأن قلوب أهله أدنى إلى الأيمان، فهو لم يعرف فخامة ملابس رجال الدين إلا في عهود الضعف والانحطاط والحيرة والمخاوف وقلة الأيمان. بل إن من طوائف البوذيين من رأوا أن لباس رجل الدين ينبغي أن يقل كلما ارتفع قدره في مراتب الكهنوت، حتى إذا وصلنا إلى الكاهن الأكبر وجدناه أقرب إلى المصري، وقد حلق شعر رأسه تجردًا حتى من الكساء الطبيعي الذي خلقه الله للعباد.

ومن هذا القبيل أيضًا ما نلاحظه من أن المعاني كلها مرتبطة عند الغربي بماديات، فالمادة مثلا هي محور القانون الأوروبي، والجانب الأكبر من مواد هذه القوانين يدور حول المال والعقار والحقوق المادية، حتى الضرر لا يكون موضع عقاب حق إلا إذا كان ماديًا، وهو لم يعط الشرف والعرض

مثلا من الأهمية ما أعطى المال والعقار، فإذا قارنا ذلك بالقانون البدوي الذي كان يحكم حياة العرب قبل الإسلام وهو الذي نجمل وصفه بقولنا «المروءة» وجدنا أنه يجعل الأهمية كلها للمعنويات دون الماديات، فالشرف والكرم وصون العرض والإخلاص للإخوان في المكان الأول، أما الماديات فيكاد ألا يكون لها حساب، بل كان مبدأهم الأساسي في الحياة هي التضحية بالمال في سبيل الشرف والسمعة. وهذا كله كان قبل الإسلام، فما بالك بما بعد الإسلام؟

ذكرت فيما مضى من الحديث أن الشرقي يشعر دائمًا أنه جزء من الوجود، وأنه لا يشعر لنفسه بكيان قائم منفصل عما عداه في هذا الكون الفسيح.

وهذا الشعور في نفسه يبعث الرضي والاطمئنان، فهو مهما كان لا يمكن أن يكون أضخم من الجبال أو أقوى من السباع، فإذا كانت الحياة تعبث بهذه وتلك فهذا عزاء له كل عزاء عما عسى أن تصيبه به الأيام. ولهذا فهو يتلقى ما يصيبه في صبر قد يبدو لنا أنه عدم اكتراث، بل يحسبه البعض بلادة وموات أحساس، ولكنه في الحقيقة صادر عن إدراك كامل لطبيعة الوجود وعن إحساس باندراجه في الكون كله، يصيبه ما يصيبه ولا محل للشكوى أو الإنكار...

أما ما نجده في كلام الشرقيين من شكوى الزمان فهو أقرب إلى تدليل الزمان والتحبب إليه، شأنه في ذلك شأن ما نسمع من التغني بآلام الهوى والشكوى من ظلم الحبيب، وأنت إذ تقرأ ما يفيض به شعرنا العربي

من شكوى الزمان تحس أنها ليست شكاة مقروح وإنما هي عتب صديق فالشاعر يعتب على الزمن ويخاطبه ويبادله الحديث على نحو يدل على الألفة والإخاء، بل منهم من يشكو الزمان وكأنه يستزيده! وذلك كله راجع إلى ما وصفناه من اندماج الشرقي في الحياة وقبوله إياها بما فيها من لذاذات وآلام. وهو إذا نزلت بساحته الخطوب تلقاها وهو يشعر أنه لا مفر منها، ومن ثم فهو لا يسرف في الغضب على الدنيا ولا يفكر في الهرب منها مهما أصابه فيها، وكيف يهرب من نفسه؟ وهذا هو السر في قلة انتحار الشرقيين، وكثرته بين الغربيين: إن الشرقي يشعر أنه من الحياة وللحياة وليس في استطاعته أن ينفصل عنها إلا إذا انقضت ذلك طبيعتها هي. أما الغربي فيشعر أنه منفصل عنها معاد لها يصارعها وتصارعه، فإذا أنهزم في ميدانها قطع الصلة التي تربطه بها وأخمد أنفاس نفسه بيده، كأنه يفض شركة لا ترضيه، أو ينفض يده من صفقة يشعر أنه فيها مغبون. وما السر في ذلك؟

السر في ذلك أن شعوب الشرق الأصلية كلها نشأت كلها في بيئات خصبة فياضة بالخيرات، فشعب مصر القديم نشأ ونما على ضفاف النيل، وشعوب بابل وآشور والكلدان نشأت في بلاد الرافدين، وشعب الهند نشأ في أحواض الأنهار الدافقة، وكذلك شعوب الصين. بل إن أهل الصحارى أنفسهم نشأوا أول الأمر في بيئات كثيرة الخيرات، وصحراء بلاد العرب لم تكن منذ الأزل صحار قاحلة، بل كانت مراعى خضراء تمرح فيها قطعان الماشية ويعيش عليها الناس، وكذلك هضاب فارس كانت فيما سلف من الأحقاب رياضًا خضراء كلها شجر وزهر وثمر، وهذه هي صورتها كما

نجدها في أساطير الفرس الموغلة في القدم. ولقد قضى الأجداد الأول للعرب، أولئك الذين يسمون في مصطلح العلم بالساميين الأصلاء في جزيرتهم أحقابًا في نعمة وخير وافر، فنشأت أرواحهم على الشبع والقناعة، وجفت بعد ذلك جزيرتهم شيئًا فشيئًا حتى صارت إلى ذلك الأقفار الذي هي عليه وكلما أشتد الجفاف هاجرت منها جماعات لتستقر في البلاد الخصبة حولها، هاجر الكلدانيون والبابليون والآراميون والعبرانيون وبعض أجيال من العرب حتى لم يبق فيها إلا هذه البقية القليلة من العرب الذين وجدناهم فيها قبل الإسلام بقرون قليلة، وبقيت فيهم مع ذلك خصال أولئك الأجداد البعيدين، بقيت مثلا عليًا يحلمون بها وإن لم يستطيعوا تحقيقها، بقيت حية في عقولهم الباطنة، ومن ثم فإننا نجدهم يمتدحون التعفف عن الطعام وهم أحوج إلى كسرة زاد، ويتغنون بالكرم وهم لا يجدون ما يتبلغون به! وتلك كلها رواسب في العقل الباطن. وهذا كله عن العرب أهل القفار فما بالك بأهل الوديان والزروع...؟

نشأت شعوب الشرق الأصيلة إذن في بيئات كريمة فياضة بالخير، فاعتادوا الوفرة والكثرة حتى زهدوا في الخير لكثرة ما ألفوه، وأصبحت الوفرة عندهم هي القاعدة والندرة هي الشذوذ. أصبح وجود الخيرات هو الطبيعي وقلتها أمدًا عابرًا لابد أن يزول وتعود الحياة سيرتها الأولى، أبسط دليل على هذا أن البدوي العادي الذي كان لا يجد ضبًا يأكله في الصحراء لم يملكه العجب عند ما وجد نفسه وسط خيرات مصر مثلا عند ما صار فيها، بل أقبل عليها إقبال المتعود عليها، كأنهما لم يكونوا بالأمس في قفر يباب، وما هي إلا سنوات حتى تناولوا الزراعة وانصرفوا إلى شئون

المعاش الحضري، حتى احتاج عمر بن الخطاب إلى أن يأمرهم بأن ينتهوا عن ذلك ولو لم يكن قد وجدهم قد غرقوا فيه ما أحتاج إلى إصدار هذا الأمر إليه.

وقارن بهذا شعوبًا لم تألف الحضر ولم يألفها الحضر أبدًا كالشعوب التي تألفت منها جماعات مماليك مصر، أولئك الذين تركوا الوادي وعاشوا متأبدين في الصخر اليابس على قمة المقطم كأنهم عقبان لا بشر. وهؤلاء شواذ لا يقاس بهم أحد، وإنما أشرنا إليهم لمجرد التمثيل والإيضاح.

إذن فقد نشأت هذه الشعوب كلها في بيئات خيرة، فلم تنشأ في قلوبها هذه العواطف الشريرة التي وجدناها عند من وصفنا من شعوب الغرب. وتأصلت في نفوسها الألفة للحياة وما فيها، ودرجت على أن تنظر إلى كل ما في الوجود على أنه ملك لها وتحت تصرفها، واتسع أمامها الوقت للتأمل والتفكير. ولم يتجه تفكيرها إلى اختراع شيء تصارع به الأيام وتقسر به الحياة على الجود بما عندها، لأن كل شيء متوفر لديها، وإنما اتجه تفكيرها إلى ما وراء ذلك، إلى ما وراء الشمس الساطعة والقمر البازغ والشجر الناضر والروض الباسم والبحر الضاحك، إلى سر ذلك كله إلى أصل ذلك، إلى مبدع الكائنات، إلى خالق الكون، إلى الله...

وقد وصل الشرقي إلى الله بعد رحلة طويلة تقص صفحات هذا الكتاب بعض فصولها، وهي رحلة أوجزها الله سبحانه وتعالى في حديث إبراهيم عليه السلام، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1]﴾.

وكان دافع الشرقي إلى البحث عن الخالق الأعظم هو الإعجاب والشكر والحب. بحث عن الخالق لأنه أحب الخلق فتاقت نفسه إلى أصله أما عند الغربيين القدامى، أي عند التيوتون فكان الخوف هو الدافع إلى البحث عن الخالق. ولقد تمثل التيوتوني القديم والإغريقي القديم قوى الشر كلها آلهة إلى جوار آلهة الخير، فالرياح العاصفة إلهة. والجبل الرهيب إله، والنار التي تحرق إله، ولهذا فقد كره بعض آلهته وازدراها وأصبح يتقي شرها بعبادتها وتقديم القرابين لها، بل استعان ببعضها ليفسد أعمال بعضها الآخر، وأحرق البخور لبعضها لتكشف له سر بعضها الآخر، وما معبد «دلف» وما كان يقام فيه من طقوس لاستخراج سر آلهة الغيب إلا صورة من ذلك. ولم يعرف الشرقي هذا الخوف من المعبود أو الكراهية له، ولم يعرف في الإله إلا أنه رمز الخير والجمال. أما ما عدا ذلك من قوى الغيب فأرواح شريرة.

أما ما يقال من أن بعض المشارقة عبدوا إلهين، إله للخير وإله للشر، إله للنور وإله للظلام، فذلك ليس بصحيح على إطلاقه، والواقع أن هذه الجماعات لم تعبد إلا إله الخير، أما ما يسمي بإله الشر، فهو رمز لقوي

---

(1) سورة الأعراف آية رقم ٧٥- ٧٨.

الشر التي يستعين عليها بمصدر الخير. ثم إن هذه العقيدة وما يشبهها من العبادات الشاذة عند بعض الجماعات الشرقية، فهذه ظواهر لا نجدها عند شعوب الشرق! إلا إذا ضعف أمرها وانحل بنيانها وفسد في كيانها كل شيء وآذنت بالزوال، وهي من هنا لا تمثل طبيعة الشرقي وفكرته عن الأله.

لقد نشأت فكرة الله في قلب الشرقي عن شعور بالحب والأعجاب والتطلع والشوق، ولا زالت العبادة عند الشرقي لونًا من الشوق أو رغبة في الاتصال بالمحبوب الأعلى الذي هو الله.

لا غرابة إذن أن يكون الشرق مهد الديانات الكبرى كلها، ولا عجب في أنك لا تجد عقيدة سامية إلا كان هذا الشرق مصدرها، كأن الاهتداء إليها اختصاص لأهل الشرق دون غيرهم، ولقد بقي العالم الغربي دهورًا دون عقيدة صالحة حتى أهداه الشرق دياناته الكبرى، فوجد فيها ما اطمأن إليه قلبه. وهو مع ذلك لم يقبل المسيحية مثلا كما هي بل فرض عليها طبعه وأعطاها صورة نفسه، ولعله لم يعرف الأيمان الصادقة بها إلا في القليل النادر، ومن الثابت على أي حال أنه لم يسر على نهجها الصحيح الأول إلا في قرونها الأولى، ثم ابتدع لنفسه صورة منها سماها «العالمية» وهو معنى الكاثوليكية، ثم شق هذه واستخرج منها البروتستنتية بصورها الكثيرة التي تشبه أن تكون عقائد قومية أو محلية.

لقد نسب المصري القديم إلى إلهه كل صفات الخير والمحبة والرفق والسلام، فكأن المعبود عند المصري القديم هو صورة الخير الخالص، هو

صورة الإنسان كما ينبغي أن يكون، هو الإنسانية بمعنييها، أي النسبة إلى الإنسان وجماع الفضائل.

وعند ما ارتقى عقل الشرقي اهتدى إلى أن الله هو أصل الخير ومبدع الجمال والإنسانية...

وحسبنا– إلى هنا، فإن ما يلي ذلك من الأفكار إنما هو مبدأ رحلة البشر إلى الخالق، وهي رحلة طويلة .

اخناتون

د. عبد الحميد يونس

لمصر مكان فريد بين العالمين القديم والجديد، ولها رسالة فريدة في حضارة الإنسانية، نهضت بها في جميع مراحل التاريخ، وقدر لها أن تبتكر بعبقريتها الفذة أكثر المقومات التي ترتكز عليها حضارة الإنسان إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم. وكان من نصيب مصر أن يظهر فيها أول داعية إلى «التوحيد» في العالم وهو أمنحتب الرابع الذي تلقب بـ «إخناتون».

ويجمع المؤرخون على أن هذا الداعية، الذي ذهب في الخالدين منذ نيف وثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة، لم يكن أول مكتشف لفكرة التوحيد في العقيدة الدينية فحسب، وإنما كان إلى هذا كله، أول من أكبر شخصية الفرد، أيا كانت أرومته أو طبقته، وأول من آثر الصدق في السلوك الشخصي والتعبير الفني، وأول من احتفل بالطبيعة ورآها في ذاتها أهلا للتصوير، وأول من ثار على سلطان الكهانة والكهنوت.

وتقلبت على مصر أحقاب وأحقاب.. جاء الفراعنة وذهبوا مخلفين هذه الآثار الشاخصة التي تدل عليهم، وتسجل وقائعهم، وتؤرخ أيامهم، وتصور آلهتهم. واشتهر من هؤلاء الفراعين، آحادًا، تفردوا بالعبقرية في

الحرب وتدبير الملك والبناء، ولكن واحدًا منهم لم يبلغ شأو إخناتون الذي تجاوز الجانب المادي في الحياة إلى الجانب الروحي والوجداني حتى أصبح اسمه من أبرز الأسماء لا في تاريخ مصر وحدها، بل في تاريخ العالم كله، وما من كتاب يعالج الحضارة أو العقائد أو الفنون إلا ولإخناتون فيه مكان الصدارة. وليس من غرضنا أن نعرض في هذا الفصل لتاريخ مصر قبل إخناتون! وحسبنا أن نذكر عبارة مؤرخ مصر القديمة «برستد»، فقد قال صراحة إن إخناتون «له مركز ظاهر وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالى الأجيال وهو أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية على مدى التاريخ البشري[٢]».

والمألوف أن يسجل التاريخ أسماء الزعماء الثائرين في وجه الملوك المستبدين، أما إخناتون فقد سجل التاريخ اسمه، على أنه ملك ثائر على العقائد الفاسدة والخرافات الضارة والتقاليد الباغية. ولقي في سبيل ذلك، وهو صاحب الأمر والنهي، في أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ القديم، ما يلقاه الأحرار الثائرون من الشدائد والدسائس، وضروب الأذى في أخريات أيامه، وهو متشبث بما يعتقده الحق، يدعو إليه الكافة في دولته المترامية الأطراف..

واقترن اسم مصر بهذه الآثار الكثيرة المنتشرة بين حدود النوبة وبلاد النهرين وأصبحت رمزًا على النزوع المستمر الموصول إلى البناء والتشييد وكانت عقيدة المصريين مزيجًا من التفسير الخرافي، والرمز الفلسفي لمظاهر

(٢) ج. برستد، «تاريخ مصر منذ أقدم العصور» ترجمة الدكتور حسن كمال، ص ٢٣٥.

الكون وصور الحياة حتى أننا أصبحنا لا نستطيع أن نتبين صفات آلهتهم إلا من القرائن المبثوثة في الخرافة الدينية المتعلقة بهذه الآلهة. ومع هذا كله نشر المصريون أنظارًا على حظ من الرقي، خاصة بالحياة على الأرض وما قبلها وما بعدها، وبالخير ورقابته على فعال الناس وسلوكهم، والشر وصراعه مع الخير وانتصار الأول عليه، وبالعلم وحاجة الأحياء العاقلة إليه، وبالعمل ووجوب إتقانه، ورد النبوغ والعبقرية إلى وحي الآلهة.. ولنأخذ على سبيل المثال الإله «بتاح» الذي اتصلت سيرته بالصناعة والعمارة والفن جميعًا، فقد كان يرجع إليه في كل ما يتصل بالبناء والصناعة، ثم جعلته الكهنة الرئيس الأعلى للمصنع الملحق بمعبده في مدينة منف، وارتقي خيالهم على الأيام فجعلوا العالم مثالا للمعبد حتى أصبح «بتاح» الرئيس الأعلى لجميع الصناع في العالم، وسموا به مرة أخرى حتى جعلوه القوة الفكرية المحركة لكل ما يحدث في الكون، ولم يكتفوا بذلك ولكنهم ردوا إليه خلق الكون كما ردوا إليه النبوغ في الصناعة والفن جميعا.

وتتميز مصر من بلاد العالم بالشمس التي لا تكاد ترمد لها عين، وأدرك المصريون ما تستحدثه في الكائنات والأشياء من تغير، ووصلوا بينها وبين النيل الذي يوحد أراضيهم، ويشيع فيها الخصب والنماء، فربطوا بين الشمس في السماء والنيل في الأرض وفطنوا إلى ما تصعده الأولى من سحب تتساقط غيوثًا على أصقاع أخرى، ثم خرجوا من نطاق واديهم وانتشروا في كل اتجاه وهم يبصرون الشمس تنظم الفصول وتفرق بين النهار والليل وتمد الأحياء بالنور والحرارة. وكان طبيعيًا أن يؤله المصريون

الشمس، فيما يؤلهون من مظاهر الطبيعة وصورها، ونحن نذكر أن مركز عبادة الشمس أو عبادة «رع» كان في عين الشمس بالوجه البحري وأن هذه العبادة ظلت قرونًا متطاولة من أبرز السمات في ديانات المصريين القدماء، وبرز هذا الإله «رع» على غيره من الآلهة بروز الشمس على غيرها من الظواهر الكونية، وقاس المصريون إله الشمس، في حكمه على الأرض وتداوله للفصول وتنظيمه الليل والنهار، بفرعون المتملك على مصر ومن ثم أصبح «رع» ملكًا في السماء وفرعون ملكًا في الأرض، بل أصبح فرعون ابنًا لرع ينسب إليه كما ينسب إلى أبيه ويأخذ الملك عنه قبل أن يرثه عن سلفه. وتداخلت المعبودات المصرية وكثرت وتنوعت بتنوع الأقاليم والأحقاب والدول الحاكمة فظل «رع» إله الشمس مقدمًا عليها جميعًا يقرن اسمه بأسمائها، وترسم المعابد في شتى الأنحاء على غرار معبده في عين شمس، وتنقل الشعائر والمراسيم حكاية عن مناسك رع في عين شمس.

كانت آلهة المصريين، كما رأيت، هي الخالقة للكون، المدبرة لنواميسه الموحية بأعمال البشر جميعًا، باسمها يحكم فرعون، وباسمها يفتح البلاد. وكان «آمون» معروفًا في مصر منذ أمد بعيد ومركزه مدينة «طيبة» التي نشأت فيها الأسرة الثامنة عشرة، أعظم الدول التي قدر لها أن تحكم مصر في التاريخ القديم وهي التي تجاوزت الملكية المحدودة في مصر من بلاد النوبة إلى البحر المتوسط، وجعلتها إمبراطورية تمتد إلى بلاد النهرين، فبرز آمون إلى الوجود ببروز ملوك طيبة وظهر اسمه على أسماء الآلهة الأخرى، ولكن لم يستطع أن يخمل رع إله الشمس فاقترن اسمه به وأصبح «آمون

رع» وقوى ساعد الكهنة واتسع نفوذهم باتساع نفوذ آمون، وكان الفراعنة إلى عهد أمنحتب الثالث والد إخناتون يكبرون من شأن سدنة آمون ويضمون إلى أملاك الآله ما يستطيعون، وينقلون عبادته في كل مكان ينطوي في حدود إمبراطوريتهم الواسعة.

حكم أمنحتب الثالث والد إخناتون في وقت بلغت فيه مصر ذروة مجدها في التاريخ القديم، فإن عهده يتسم بوفرة رخائه، وتقدم حضارته، واتساع ملكه، وفيه توثقت الأواصر بين إفريقيا وآسيا وزالت الفوارق القديمة، وارتفعت الحواجز بين الدول المتنافسة، وأصبحت الأقاليم الممتدة من الفرات، إلى أعالي النيل متحدة على الرغم من تباين الشعوب وتركزت التجارة العالمية في مصر وأضحى فرعون الرجل الأول في العالم القديم وكانت مصر تحتفظ في مختلف ولاياتها بمعاقل وحصون تحميها من غارات المغيرين، وثورات المنتقضين على النظام والقانون، وألحقت بهذه الحصون وتلك المعاقل معابد مصرية يعظم فيها آمون إله مصر الرسمي.

ولقد خرج أمنحتب الثالث على التقاليد المرعية في البيت الفرعوني فلم يتزوج لأول عهده بالزواج من أميرة فرعونية، ولم يصهر إلى ملك من ذوي السلطان الذين يخطبون ود فرعون، ولم يبن بابنة قيل من الأقيال الكثيرين الذين يدينون له بالطاعة ولكنه تزوج– كما يقول المؤرخون– من امرأة مجهولة الأصل والنسب تدعي «تي» واختلف الباحثون في أمرها ولكن المتأمل في صورها الباقية لا يرى فيها مسحة أجنبية. وأحاطها الملك بكل ما ينبغي لها من الإجلال، وسجل تاريخ قرانه بها على جعل عظيم،

وسمح لها بأن تذكر اسمها في موضع بعينه في النصوص والمراسيم الملكية. ويعد هذا الحادث في نظر المؤرخين بداية نفوذ الملكات في السياسة الداخلية والخارجية على السواء. وكان لهذه الملكة «تي» سلطان قوى على زوجها أمنحتب الثالث وعلى ابنها من بعده، إخناتون.

ولم تشق الولايات المصرية عصا الطاعة على فرعون عند جلوسه على عرش آبائه وأجداده. كما كان يحدث دائمًا في مفتتح حكم جديد، وولاية فرعون جديد، وبلغ من قوة النفوذ المصري أن تنافست بابل وآشور ومتاني وقبرص، على كسب مودة مصر العظمى، ويعد ذلك بمثابة أول مظهر دولي عام في تاريخ العلاقات الدبلوماسية في العالم، وصار فرعون قصبة العالم المتمدين ومركز الاتصال والتراسل مع الملوك والحكام في التاريخ القديم، وتكشفت الخطابات الكثيرة التي عثر عليها في «تل العمارنة» عن مكانة مصر الدولية في ذلك العهد وعن أساليب التعظيم والإجلال التي كان يخاطب بها فرعون، وعن الجهود الفائقة التي بذلها كل ملك اكتسابًا لمحبة مصر، ومودة فرعون مصر.

ويعرف أمنحتب الثالث والد إخناتون بخصلتين عظيمتين: أولهما أنه كان على الرغم من الهدوء الشامل في الولايات المصرية، والأمن المستتب في الأقاليم الشمالية والجنوبية على السواء شجاعًا مقدامًا، بلغت رقعة الإمبراطورية المصرية في أيامه أقصى حدودها ودون التاريخ مغامراته في الحرب والكشف معًا. أما الخصلة الثانية فهي نزوعه الأصيل إلى التشييد والبناء، فلم يدخر وسعًا في تشجيع مهندسيه وتزويدهم بكل ما يحتاجون

إليه حتى نبغ في عصره عباقرة أفذاذ نذكر منهم المهندس العظيم «أمنحتب» الذي أصبح نبوغه مضرب الأمثال، والذي ظل العالم كله يذكره نيفًا وألف سنة والذي جمعت حكمه في العهد اليوناني وسلك مع الآلهة في عهد البطالمة!

ولعل أجمل ما خلفه تاريخ مصر القديم في فن العمارة إنما شيد في عهد هذا الملك. فلقد كان في مدينة الأقصر، وهي من أرباض طيبة، معبد صغير لآمون فلما جلس أمنحتب الثالث على عرش آبائه، أمر بهدمه وإقامة معبد آخر جدير بإله مصر في عهدها الإمبراطوري، فصدع مهندسوه بأمره، ونفذوا مشيئته، وأقاموا معبدًا ضخمًا، ثم شيدوا بعد ذلك إيوانًا بديعًا ينتظم أروقة ذوات عمد. ثم ازداد هؤلاء المهندسون ثقة بأنفسهم، فشيدوا إيوانًا أعظم من الأول، ويجمع مؤرخو الفنون على أن هذه العمد بأروقتها أجمل ما خلفته مصر القديمة في فن العمارة.

والدارس لعصر أمنحتب الثالث تطالعه أبهة الملك ومراسيمه... فأنت لا تستطيع أن تميز الطابع الفردي في غمرة الوقائع والحفلات والمراسلات، ذلك لأن الملكية الرسمية كانت هي السمة البارزة على الحياة كلها في بيت فرعون وأعوانه وحاشيته، كما كانت الصفة الغالبة على كل ما أثر عن كهنة آمون ذوي النفوذ المتغلغل في الحاكمين والمحكومين جميعًا، فالزيجات الملكية السياسية بعد الاقتران بالملكة «تي»، ومراسيم التخاطب والكتابة وفقدان التناسب في الصور والأشكال، وإيثار الضخامة والافتقار إلى الحركة في التماثيل، وعدم الخروج على التقاليد، وتغليب الشكل على

المضمون وتصدر الجسم الملكي. كل أولئك كانت من سمات العصر الإمبراطوري وخصائصه. والمتتبع لتاريخ الفراعنة يذكر صنيع أمنحتب الثالث عندما احتفر بركة شاسعة لزوجته تي واحتفل بفتح السدود لتتدفق المياه إلى تلك البركة، وطاف عليها بمركبه الملكي تصحبه زوجته في احتفال رسمي مهيب يشبه إلى حد بعيد ما روى في كتاب ألف ليلة وليلة!

ومع هذا كله استنام أمنحتب الثالث إلى الترف وأبهة الملك وقعد عن الذهاب بنفسه لواجهة القلاقل التي بدأت تنوش أطراف الإمبراطورية.

وعرف هذا الملك بكثرة احتفالاته وظهوره لرعيته كما اقترن اسمه باسم زوجته «تي» ولكنه ظل في الوقت نفسه، معبودًا هو وزوجته، تحيط به الأسرار، وتكتنفه القداسة وتختفي حياته الشخصية الخاصة وراء الشعائر والمراسيم.

في هذه الظروف تولى عرش الفراعنة «أمنحتب الرابع» الذي لم يخرج إلى الدنيا من أبوين ملكيين عريقيين، فقد ساط الشعب دماءه إذا انحدر من تلك الملكة، مجهولة الأصل والنسب التي اقترن بها أبوه، والتي تغلغل نفوذها في كل ما يتصل بالملك والتي سيطرت تمام السيطرة على أبيه. وليس من شك في أن شخصيتها القوية جعلت ابنها شديد الاتصال بها، ولكن مع ذلك لم يكن كغيره من فراعنة مصر الذين سبقوه يدور في فلك المراسيم ويخضع لسلطان التقاليد، وتتحكم فيه إرادة الكهان ولم يرث عن أبيه الإقبال على ترف الحياة، ولا عن أمه حب التسلط والنفوذ وإنما كان

فذًا على غير مثال سابق حتى ليعده المؤرخون، الذين احتفلوا بسيرته، أول شخصية فردية ظهرت في التاريخ الإنساني.

وأغلب الظن أن أمنحتب الرابع كان يصبح ويمسي على الترانيم التي يوجهها والداه والكهنة وسواد الناس إلى الإله «آمون رع» وهي الترانيم التي يمتزج فيها تأمل فلسفي بالخرافة غير المعقولة، ولقد حفظت لنا الآثار أمثلة منها ظل المصريون يرددونه أجيالا وأجيالا قبل أن يخرج أمنحتب الرابع إلى الحياة، ولكنها على الرغم من ذلك تتضمن معنى يقترب من التوحيد ويكاد يختفي فيه ازدواج إلهين في اسم مركب واحد، وقد قال أحد الشعراء قبل أمنحتب الرابع بما يقرب من قرن: «تتفطر الأوصال عند النظر إلى طلعتك البهية. ويذهل العقل عند التطلع إليك.

يا من يصدر عن عينيه البشر وتصدر عن فمه الآلهة

يا منبت الكلأ للماشية، وأشجار الثمار لبني الإنسان

يا من جعل قوام السمك في الماء، وقوام الطير في الهواء

يا نافث الروح في الكائن المكنون في البيضة، وباعث الحياة في الوليد من الزواحف، ورازق البعوض والدود والبراغيث، ومطعم الفيران في جحورها والطير على الشجر.

سبحانك بارئ البرايا كافة. أنت واحد أحد ولكن آياديك كثيرة

يا من لا تأخذه سنة طوال الليل والناس رقود. البار برعيته متحرى لهم الخير...[٣]"

وإليك ترنيمة بديعة أخرى نظمت في عهد والد أمنحتب الرابع وهي تسبح بحمد «آمون رع» أيضًا وتوحد بينه وبين «خنومو» بارئ الخلق و «بتاح» إله الصناعة والفن في منف! وهي تجمع أساطير الأولين وتضيف صفات الآلهة المتعددين إلى إله واحد:

"أيها الموجد الذي لا موجد له، أيها الواحد الأحد الذي تطوي الأبد.

إنك لتقطع على عجل مسيرة الملايين، ومئات الألوف من الفراسخ في لحظة حين تشرق في البكور تتفتح العيون لأشعتك، وحين تغيب وراء الجبال الغربية يغشى النوم البرايا كأنهم موتى.

أنت الأم البارة للآلهة والبشر، والصانع الدؤوب الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر، والراعي ذو القوة والبأس يرعى رعيته، ولولاك ملاذهم ما تهيأت لهم حياة"[٤].

وما كاد أمنحتب الرابع «إخناتون» يجلس على عرش أبيه عام ١٣٧٥ قبل الميلاد حتى استغرقه التأمل في الوجود وفي الكون، وشغله

---

(٣) تاريخ العالم، المجلد الثاني ف. ل. جريفث «الانقلاب الديني في مصر» ترجمة عبد الرحمن صدقي ص ٣٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣.

التفكير فيما ينبغي أن تكون عليه عقيدة الإنسان، ومن الظلم لهذا الملك أن ينعت بأنه كان حالمًا، يعيش على الوهم، ينفق عمره في غير الواقع، ذلك لأن الخرافة الدينية كانت تغل العقل، وتشل ملكة التفكير وتباعد ما بين المرء وبين الحقيقة، يعين على هذا كله كهنوت عريق يستمد نفوذه من جذور هذه الخرافة، ويتبوأ مكانه من فرعون، ومن كافة المصريين المحكومين، بوساطة امتيازات لا حد لها، ولا سلطان لأحد عليها.

وصح عند أمنحتب الرابع أن الآلهة المتعددة يجب أن تتوحد، وأن هذا التوحيد يجب أن يقوم على العقل، وأن يبرأ من الخرافة ومن سلطة الكهنوت معًا، ولم يكن ذلك يسيرًا لأن العقيدة الدينية كانت وقتذاك قوام الحياة جميعًا وكان على فرعون إذا أراد أن يدعو إلى مذهبه الجديد في التوحيد أن يخوض معارك قاسية مريرة أهون منها وقائع الحروب، ولم يأبه فرعون بشيء من ذلك، ومضى في تأملاته الفلسفية إلى غايتها، وترامت إليه أقوال الرحالة المصريين الذين طوفوا في الولايات الشمالية والجنوبية، والذين تجاوزوا حدود الإمبراطورية الكبرى شرقًا وغربًا وهي الأقوال التي تؤكد عظمة قرص الشمس، وظهوره على هيئته في كل إقليم، وتأثيره في الأحياء والكائنات والأشياء، في الأرض والبحر والسماء. وكان «رع» على الرغم من ازدواجه بآمون أسمى مكانة وأعظم قدرًا، وأقرب إلى العقل في الكشف عن آثاره الظاهرة والخفية. وظهر في عهد والده اسم مرادف لرع وهو آتون للدلالة على قرص الشمس، وكثيرًا ما استعيض به عن رع. ويقول الأثريون أن آتون اسم قديم، ولكنه لم يكن شائع الاستعمال. ولعلك لم تنس بعض ما سبق أن ذكرنا، عن تلك البركة التي احتفرها

أمنحتب الثالث لزوجته الملكة «تي» فقد أطلق على السفينة التي طاف بها على صفحة هذه البركة «أشعة آتون» كما أن أفرادًا من رجال حاشيته كانوا يسمون بصفات تنسب إلى قرص الشمس آتون المعبود الواحد الذي لا شريك له.. وانتهى الأمر بأمنحتب الرابع إلى الاقتناع بإله واحد هو آتون، ولكنه لم يكن كما تصور معاصروه وأسلافه قرص الشمس. فالإله عند هذا الملك الفيلسوف شيء والكوكب الشمسي شيء آخر. وتدل النصوص الأثرية على أنه– كأمه– يرى أن المعبود هو حرارة الشمس «آتون» وأنه سيد آتون أي سيد الشمس ويتضح من ذلك أنه لم يعبد الشمس ذات الأشعة المنبعثة نحو الأرض وهي التي تخيلها منتهية بأيد قابضة على رمز الحياة!

وهنا شرع فرعون يدعو إلى فكرته التوحيدية بكل ما يملك من سلطان الملك، وأرسل بعثة من رجاله لتحضر الأحجار التي يشيد بها معبدًا عظيمًا لإلهه الجديد وتخير حديقة معبد آمون التي أنشأها والده بين معبدي الكرنك والأقصر، وما لبث أن أقام معبدًا شامخًا يفوق معابد الآلهة الأخرى وزينه بالرسوم البارزة الزاهية وأطلق عليه اسم نور آتون العظيم، كما أطلق على مدينة طيبة نفسها اسم «نور آتون» ولم يحرم في الوقت ذاته على الناس عبادة الآلهة الأخرى ولا إقامة الشعائر الخاصة بها، ولا تقديم القرابين إليها.

وهكذا بدأ الصراع بين الملك وبين الكهنة فقد أضمر هؤلاء الكيد له لما رأوه من افتئات على آمون ومعبده، وزاد اضطغانهم على فرعون

عندما وجدوه يحول بينهم وبين مناصب الدولة العليا، وهم الذين كانوا في عهد والده يتولون الشئون الخاصة بمالية الدولة، وهي عصب الحياة في الحكومة الإمبراطورية وهم الذين لم ينسوا أن واحدًا منهم ارتقى حتى أصبح الوزير الأكبر في الدولة كلها، مع احتفاظه بصفته الكهنوتية، بيد أن الملك لم يأبه لذلك، ولعله أراد أن يتخلص من سلطة الكهنة، وكان إلى استغراقه في التأمل والفلسفة والدعوة إلى دينه الجديد حصيفا استغل التنافس القديم بين طوائف الكهنوت، فقرب سدنة «عين شمس» لكي يؤازروه، كما قرب نفرًا من المدنيين أسند إليهم مناصب الوزارة.

ومما يؤكد حصافة هذا الداعية الجديد إلى التوحيد أنه استغل اسم «رع» في بداية الدعوة، لكي يحظى بتأييد الناس لمذهبه، أو قل لبدعته، فزعم أن آتون أحد أسماء الإله رع، وقال صراحة: «ها هي ذي كلمات رع أمامك... ولقد علمني والدي العظيم معناها الحقيقي ففهمها قلبي وعرفها وجهي، ففهمتها أنا(٥)...» وبهذه الوسيلة أسند مذهبه الجديد إلى رع، وجعل من نفسه الكاهن الأكبر له. وجدير بالملاحظة أن آتون، أشمل في معناه من رع وأرقى في تجرده منه حتى أصبح لا يرادفه، وإنما يرادف كلمة المعبود في اللغة المصرية القديمة وهي «نتر»، وهذا يدل، لا على تغليب آتون على غيره من الآلهة فحسب، ولكن على استئثاره بالعبادة دونها أيضًا. ولم يمض طويل وقت حتى عمل أمنحتب الرابع على سحق آمون، والقضاء على كهنته! وبدأت الحرب تشتجر فأمر بمصادرة أملاك هؤلاء

---

(٥) ح. برستد، «تاريخ مصر منذ أقدم العصور» ترجمة الدكتور حسن كمال سنة ٢٣٨.

الكهنة، ومحو أسماء الآلهة جميعًا، إلا اسم الإله الواحد آتون، من جميع الآثار، وتحريم عبادتها والقيام بمراسيمها وشعائرها. ولم يكتف بذلك بل محا اسم آمون من معابد طيبة كلها، وكره أن ينادي بالاسم نفسه ومعناه «آمون الطيب» وتسمى منذ ذاك بـ «إخناتون» ومعناه «مجد آتون». واشتد الصراع بين الجديد والقديم، وكان كل شيء يحيط به يذكره بآمون وغيره من المعبودات، فصمم على أن يشيد مدينة أعظم من طيبة لم يرتفع فيها صوت بعبادة سابقة على عبادة آتون، وتخير هذه المدينة في سفح الجبل وفي منتصف الصعيد، وموقعها يعرف الآن بـ «تل العمارنة» وأطلق عليها اسم «أخيتاتون» أي «سماء آتون».

وهكذا أنشأ أختاتون عاصمة جديدة لإمبراطورية مصر لم يدفع إليها النزوع إلى الغزو أو طلب الدفاع أو الرغبة في التجارة أو توسط الطرق الممتدة في كل اتجاه، وإنما دفع إليها المذهب الديني الجديد.

ولقد عهد فرعون إلى مهندسه العظيم «بك» الذي سجل اسمه في تاريخ الفن، بإحضار الأحجار اللازمة لبناء المعابد والقصور والمباني الرسمية.

ووصف أحد الزوار هذه المدينة الجديدة بقوله «أخيتاتون سيدة المدن... حتى ليخيل لناظرها أنها الجنة... إذا أشرق عليها آتون أغدق

عليها أشعته محتضنًا بها ابنه الأزلي المحبوب سليل آتون، واقف الأقاليم على الذي أجلسه على العرش، ومرجع الأرض إلى خالقها[٦]».

وكما تخلص إخناتون من سلطان الكهنة، وأبعد قصبة ملكه عن روح العبادات القديمة وآثارها، فقد عمل جاهدًا على تبرئة الدين الجديد من الخرافة والسحر وما يصحبهما من شعوذة وبعد عن المعقول، ونشر دينه في طول الإمبراطورية وعرضها، وشيد معبدًا ثانيًا في الولايات الجنوبية وثالثًا في الولايات الشمالية. وحفظ لنا التاريخ ترنيمتين عرفتا بدعاء إخناتون والملكة نفرتيتي زوجته الجميلة المشهورة. وليس من شك في أن هذا التوحيد الأول في العالم كان ثمرة من ثمرات الفكر الإخناتوني الخالص، ولم يكن نتيجة لنفوذ شخص مقرب أو دخيل، بل إن جميع الأعمال التي نهض بها لنشر دينه، والدعوة إليه وتمكينه في النفوس، كانت من وحي إخناتون ومن تدبيره. والقارئ للتسبيحة الأولى يدهش من سمو الفكرة التوحيدية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ففيها تمثل لإله واحد أحد، خلق الكون بإرادته، وسوى الحياة على مختلف صورها، وهي تسبح بحمده، وتثبت وجوده. وهذا الإله الواحد الأحد سيد الكون، ولكن سيادته تقوم على عطف أبو، بلا تفريق.

وهي عقيدة عالمية بالقياس إلى المعمور المعروف وقت ذاك، لا تفرق بين قومية أو عنصر. ولقد وردت سوريا وبلاد النوبة قبل مصر في تلك الترنيمة الدينية، مما برأ عقيدة إخناتون من الكبرياء القومي، وقربها إلى

---

(٦) المصدر السابق ص ٢٤٢.

الروح الإنساني، وشتان بينها وبين عقيدة أسلافه الذين كانوا يرون أن الآلهة تهب النصر وتسحق العدو، وتسوقه ذليلا، يقدم الجزية بين يدي فرعون الجبار. ولقد وازن العالم الأثري «برستد»، بين هذه التسبيحة وبين ما ورد في المزامير، ووضع يده على أوجه شبه بين بعض فقراتها وبين المزمور الرابع بعد المائة.

ولكي تدرك سمو الفكرة التوحيدية في ذلك الماضي السحيق وتقدر ما انطوت عليه دعوة إخناتون من معان عظيمة تنتظم توحيد الإله، وتقيم العلاقة بينه وبين مخلوقاته على الرحمة والقدرة جميعًا وتسوى بين الناس على الأرض وتستشف ما بين الكائنات من صلات، نرى لزامًا علينا أن نثبت هذه التسبيحة بنصها:

جلال آتون

"بزوغك جليل في أفق السماء يا آتون، يا حي، يا مبدىء الحياة!

إذا ما صعدت في السماء الشرقي أفضت على الأراضي جمالك.

ما ذلك إلا أنك جميل عظيم، نير في السموات العليا، تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك.

أنت رع. أنت الذي أسرتهم وقيدتهم بحبك.

أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك.

أنت عال لكن أشعتك واضحة في ضوء النهار.

الليل

إذا ما غربت في أفق السماء الغربي أظلمت الأرض فأصبحت كالميتة. فيقصد السكان النوم في حجراتهم مغطي الرءوس هادئي الأنوف غير مبصرين فتسرق أمتعتهم من تحت رءوسهم دون أن يشعروا.

أما الأسود فتخرج من أجحارها وكذا الثعابين اللداغة.

ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض، وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح في أفقه.

النهار والإنسان

إذا ما ظهرت في الأفق وأشرقت في النهار كآتون أضاءت الأرض.

إذا ما بزغت أشعتك خفي الظلام، وشمل الفرح قطري مصر.

كيف لا وقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسبون ويبتهلون بأذرعتهم إليك وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم.

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة في مراعيها. والأشجار والنبات جميعًا يانعة.

والعصافير تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهاجًا إليك. والأغنام ترقص على أرجلها. والطيور تحلق في الجو تتنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها.

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه.

وكل طريق عمومي يصبح مسلوكًا لأنك ظهرت في الأفق. أما السمك فيقفز أمامك في النهر، هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم.

خلق الإنسان

أنت خالق الجنين في أمه. أنت خالق نطفة الإنسان. أنت واهب الحياة للجنين في رحم أمه وملطفه حتى لا يتكدر فيبكي. كيف لا وأنت المربي في الرحم. أنت معطي نفس الحياة كل مخلوقاتك.... أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه.

خلق الحيوان

أنت الذي تهب الحياة للفرخ في البيضة فيصيح، فإذا أتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحًا جهده واثبًا بقدميه.

الخلق

ما أكثر مخلوقاتك التي نجهلها. أنت الإله الأحد، لا شريك لك في الملك خلقت الأرض بإرادتك، ولما كنت وحيدًا في هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التي تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها. أنت الذي أحللت كل إنسان في سوريا والنوبة ومصر في موضعه وأنعمت عليه بحاجاته، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودة. لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك.

ري الأرض

أنت خالق النيل في الدار الآخرة. أنت أوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الأهالي. أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف. أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها. أنت شمس النهار المهيب في الأراضي السحيقة كلها، والواهب لها الحياة. خلقت لهم نيلا في السماء ليسقط عليهم ماؤه، فيسيل على الجبال البحر الزاهر يروي غيطانهم بين مدنهم.

ما أبدع أعمالك أيها السيد الأزلي!

فنيل السماء (مخصص) للغرباء وللدواب من كل البلاد والنيل الذي يأتي مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة.

أشعتك تغذي الجنان. فإذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك.

الفصول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك، فالشتاء يعطيهم البرودة، والصيف يهب لهم الحرارة.

أنت الذي رفعت السماء عاليًا لننظر ما خلقت في وحدتك، شارقًا حيًا كآتون ساطعًا متلألئًا ثم راجعًا ثانية إلى حيث ابتدأت.

جمال الضوء

أنت مبدع الجمال من نفسك فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك أمامها.

كيف لا وأنت آتون النهار فوق الأرض.

تضرعات الملك

أنت في قلبي، لا يعرفك سوى ابنك إخناتون الذي جعلته عاملا بآرائك وقوتك.

العالم كله في قبضتك كما خلقته.

إذا ما أشرقت (عليه) حي وإذا أفلت مات

أنت الوجود ومسبب الحياة للإنسان.

أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب، والعمل كله يبطل إذا ما أفلت في الغرب. فإذا ما أشرقت جعلت كل ذلك ينمو."[٧]

ولم يكن إخناتون صاحب عقل يفكر فقط، ولكنه كان صاحب وجدان يعبر أيضًا حتى أننا نستطيع أن نعد تسبيحته ملتقى الحكمة بالشعر: والتسبيحة الثانية لا تقل عن الأولى في عمق النظر واتساع الأفق، ولعلها تفوقها من حيث الصياغة ويرجح الباحثون أنها من نظم إخناتون نفسه، وإليك فقرات منها: «أنت أفضت على القطرين حبك، وبرك يا صاحب الأمر، يا كريم، يا موجود بنفسك، يا فاطر كل أرض وما عليها؛ بشرًا وأنعامًا وسائمة وجميع ما ينمو على وجهها من أنواع الشجر. هؤلاء كافة يحيون حين تشرق عليهم... فأنت لمن ذرأتهم الأب والأم... وإذا أنت غربت في الأفق الغربي من السماء انطرحوا أرضًا، وأسلموا جنوبهم إلى مراقدهم كالموتى الهامدين، رءوسهم ملفوفة وخياشيمهم خافتة الأنفاس مسدودة، حتى تبزغ في اليوم التالي من المشرق فترتفع أكفهم إليك يسبحون لوجهك. إن كل قطر في عيد حين ترسل أشعتك، فالمنشدون والعازفون يرفعون العقائر، ويرسلون الأنغام طربًا في ساحة بيت بنين[٨] وفي كل معبد في أخيتاتون هذا المكان الزكي الذي رضيت عنه والذي يقربون إليك فيه كل طيب وسمين."

(٧) المصدر السابق ص ٢٤٥- ٢٤٦.

(٨) حجر على هيئة المسلة لشروق الشمس.

ومنها أيضًا «بنو الإنسان أجمعون، والماشية، وكل ما طار وخفق بجناحيه، وكل ما دب على وجه الأرض من أنواع الزواحف، هؤلاء جميعًا يبعثون إلى الحياة حين يبصرونك؛ ويرقدون حين تغيبط[٩].

وها نحن أولاء نرى أن عقيدة إخناتون كانت ترتكز على دعامتين أساسيتين بعد التوحيد: أولاهما الصدق في التفكير والتعبير وإيثار المعقول والظاهر على الخرافي والخفي! وثانيتهما البساطة التي تحتفل بالفطرة الطبيعية، وتنأى بجانبها عن التعقيد والغرابة والتمويه.. كان إخناتون يقول عن نفسه إنه يعيش في الحق الذي آمن به وأنفق حياته داعية إليه، وانتظم توحيده الخلائق كلها التي خلقها إله واحد أحد كما انتظم التسوية بين الناس في الدنيا تساويهم أمام هذا الإله الواحد الأحد ومن هنا كانت دعوته بعيدة المدى لا تتصل بما فوق الوجود، وبما بعد الوجود فقط ولكنها تنطوي على فلسفة سياسية تناقض ما جرى العرف عليه في العصرين القديم والوسيط وكانت إيجابية في الإكبار من شأن الحياة والأحياء تحقق شخصية الفرد في ذاته وفي إحساسه بنفسه، وفي إتقانه لعمله، وفي علاقته بغيره، وتحقق ما يقارب الوحدة العالمية التي تقوم على التسامح لا على الغلب والاستئثار بالخير.

ولم تنفرج حياة إخناتون الخاصة عن تفكيره ودعوته الكبرى إلى التحرير، فإن هذا الملك الذي كان يسمى نفسه دائمًا بأنه الذي يحيا في

---

(٩) تاريخ العالم المجلد الثاني ف. ل. جريفث «الانقلاب الديني في مصر»، ترجمة عبد الرحمن صدقي ص ٣٩؟

الحق كره المراسيم المعقدة التي يفرضها عليه السلطان وأنف من «بروتوكول» القصر، وثار على الأوضاع الرسمية التي توارثها الفراعنة وألفها رعاياهم... كان يرى أنه إنسان كسائر الناس من حقه أن يعيش كما يعيشون، وأن يتحرك كما يتحركون، ومن ثم امتازت حياته الخاصة بما امتازت دعوته من الصدق والبساطة جميعًا. وتلك الرسوم الكثيرة التي سجلت صوره، وزوجته الأثيرة عنده نفرتيتي، وبناته في أوضاع شتى تدل بجلاء على بساطة معيشته وبعدها عن التعقيد وبراءتها من الأوضاع الرسمية، وقد أثر عن هذا الفرعون الفذ أنه لم يحط نفسه بالأسرار، ولم يكن يتخفى في حياته أو يتحجب على رعيته. كان ظاهره كباطنه. كثيرًا ما يراه الناس هو ونفرتيتي زوجته وبناته بلا تكلف ولا رياء ولا اصطناع لمراسيم وأوضاع. وهكذا دعا بسيرته كما دعا بعقيدته إلى الصدق والبساطة.

وعرف الناس عن فرعون كل ما تعودوا أن يجهلوه عن أيام أسلافه.. عرفوا إن إخناتون يكبر من شأن الصدق في العاطفة، فقد كان من أحب الناس لزوجته وأعطفهم على بناته، وجميع الآثار تحكي هذا الحب الزوجي وتلك العاطفة الأبوية في وضوح وجلاء، فقد كان إخناتون لا يرى إلا ومعه أسرته السعيدة به وما نظن أن واحدًا من الفراعين الذين سبقوه والذين كروا بعده منذ الأسرة التاسعة عشرة، بل لا نظن أن واحدًا من الملوك الذين حكموا على هذه الأرض وحد بين حياته الخاصة والعامة كما فعل إخناتون، فإن جميع هؤلاء الملوك ظهروا في إطار المراسيم والأوضاع والتقاليد المفروضة وكانت حياتهم الخاصة بعيدة عن الأعين يسدل عليها ستار كثيف يجعل أشخاصهم ألغازًا ورموزًا تكتنفها الأسرار من كل جانب؛

أما إخناتون فكان أول «فرد» عرفه التاريخ بكل ما في هذا اللفظ من خصوصية.

ونتج عن هذا الصدق في التفكير وفي الحياة الشخصية ضرب آخر منه يذكرنا بما شاع في القرن التاسع عشر بعد ميلاد المسيح من إكبار الطبيعة واعتبارها في ذاتها وفي تنوع صورها مفطورة على الحق والصواب، بعيدة عن التمويه والتكلف. وكما أجهد إخناتون نفسه في التبشير لدعوته الدينية وتمكينها من نفوس الناس فإنه لم يدخر وسعًا في إعلان رأيه القائل بالطبيعية الصادقة كلما دعته الظروف إلى محاربة عادة أو خرافة تتجاوز المعقول والطبيعي.

وترجع إلى إخناتون ثورة أخرى سجلها مؤرخو الفنون، وهي لا تقل خطرًا عن الأولى وإن تفرعت عنها. فإن تحقيق فرعون لشخصيته الفردة واحترامه للطبيعة دفعه إلى أن يثور على العرف الفني الذي لم يعد قادرًا على التعبير الصحيح كما يتمثله إخناتون. فبتأثيره سلم الطراز الجامد شبه الأكاديمي في الفن قياده إلى طراز آخر طبيعي إيجابي وهذا يتسق تمامًا مع ثورته في الدين على التقاليد الجامدة التي لم يعد لها معنى، وحبب إخناتون إلى رجال الفن في الرسم والنحت والعمارة أن يكتشفوا موضوعات جديدة وأن يتخلوا عن الفن الشكلي الذي شاع منذ الدولة الوسطى.

ومما يدل على أن إخناتون هو صاحب الفضل الأول والأخير في هذه الثورة الفنية أن المثال العظيم الذي سجل اسمه في تاريخ الفن وقتذاك وهو «بك» كان يقول جهرة ويردد دائمًا أنه تلميذ إخناتون وأنه تلقى

معارفه الفنية على يديه، وكذلك قال غيره من المتفننين الذين عاشوا في كنف هذه الثورة التحريرية، وبدأ الفن يتخذ أشكالا جديدة، ويحتفل بالإنسان في إفراده وتجمعه، وبالحيوان كما يبدو في الواقع وبالمشاهد الطبيعية المختلفة وبدأت العناية باختيار موضوعات من أحداث الحياة اليومية العادية.

ولأول مرة في تاريخ الفنون أخذ الشكل الجامد يتسم بالحرية في الحركة، فأنت ترى الطير يحلق بأجنحته في السماء، والثور الوحشي يسبح في المستنقع، والكلب بعدو كما يفعل في الواقع، ولم تقتصر الرسوم على فرد واحد، يظهر في هيئة مخصوصة ثابتة، وإنما تجاوزتها إلى تصويره في حالة حركته. فإن إخناتون نفسه قد صور وهو على عجلته يطارد أسدًا جريحًا، مما لم يألفه الفن قبله، ومما تجد ما يشبهه في الفن اليوناني بعد ذلك بأمد غير قصير وشاعت في هذه الفترة العبقرية رسوم الناس في جماعات وكان هذا ابتداعًا على غير مثال سابق.

وأصبح طابع الفن المصري في عهد إخناتون يقوم على الطبيعة، وحكاية الواقع كما هو ويقوم على الحرية في اختيار الموضوع والتقاط الزاوية، وانتخاب جزئيات الصورة. وأدى هذا بطبيعة الحال إلى ظهور عنصر الحيوية في الفن بأنواعه وأغراضه. ولم يكن المتفنن المصري يتحرج من حكاية التشويه أو العيب حتى ولو كان متصلا بالذات الملكية. ولعله رأى في إبرازها تأكيدًا للمذهب الجديد في التعبير وهو المذهب القائم على الصدق. ولذلك فنحن كثيرًا ما نشاهد في رسوم فرعون نفسه وفي تماثيله ما

كان يعد قبل عصر إخناتون من المحرمات في الفن الملكي. فقد بدأ إخناتون في صوره وفي تماثيله، كما كان في واقع الحياة، طويل الرأس. ولم يحاول المتفننون إخفاء هذا العيب، أو تمويهه أو إظهاره بخلاف ما كان عليه وإنما أكدوه، وبالغوا فيه إمعانًا منهم بالأخذ بمذهب الصدق في الطبيعة ثم عمموا هذه الظاهرة في الرءوس الأخرى تأكيدًا للطبيعة المفطورة على الصواب وتعبيرًا خاصًا عن حبهم لشخص إخناتون.

وكان الفن قبل هذه الثورة المتحررة ينزع إلى تثبيت الصور، ويصطنع قوالب مكررة ويغير في الأحجام بحيث تظهر بعيدة كل البعد عن الواقع المألوف. أما في عهد إخناتون، فقد بدت ملامح الملك نفسه، وقسمات وجهه وتقاطيع جسمه كما كانت تقع على حواس الذين شاهدوها. وأظهرها الفنان كذلك دون أن يتستر عليها، وأغلب الظن أنه بولغ في تشويهها مسايرة لنزعة الملك في إيثار الصدق والطبيعة على التكلف والكذب، وكما آثر الملك التشدد والحزم في نشر دعوته الدينية فقد فعل ذلك لتأكيد مذهبه التعبيري الفني فجاء مناقضًا لصنيع أجداده الذين كلفوا بتجسيم القوة وإظهار الهيبة، وإخفاء العيب، وبدت في الرسوم مشاهد عاطفية لم ير المتفنن حرجًا في إظهارها.

فأنت ترى بين الصور، الملكة وهي تقعد في حجر الملك، أو ترى الملك والملكة يتعانقان في حرارة أو تشاهد الملك يتبوأ مقعدًا والملكة على وسادة أمامه!.

كان إخناتون سابقًا على عصره بقرون وقرون؛ ولذلك لقيت دعوته العظيمة في توحيد الإله، والتسوية بين الناس، والطبيعية في التعبير الفني عنتًا شديدًا وشغل فرعون الفذ بين جميع الفراعين، بدينه الجديد يصوغه في التسابيح والترانيم ويشيد له المعابد في أنحاء الإمبراطورية ويمكن له في نفوس الكافة ولم ينتبه كثيرًا إلى ما دبر له بليل، واطمأن إلى ما حققه نفوذه الملكي في الميدان الروحي والفني ولعل شخصيته التي فطرت على الصدق لم تكن تألف الدسيسة أو تعترف بالعمل في الخفاء.

وواجه إخناتون، الذي تقوم فلسفته الدينية على السلام، المصاعب والقلاقل تأخذ بأطراف الدولة الشمالية وما تزال بها حتى تتطويها، كما واجهته فتنة الكهنوت القديم الذي لم يكن يسيرًا عليه أن يتخلى عن امتيازاته الكثيرة والذي رأى كيف تهدم المعابد التي عاش عليها، وكيف يصرف الناس عنها، وكيف تقام على أنقاضها معابد أخرى لمعبود آخر لم يألفوه ولم يفهموا سمو الفكرة التي يمثلها. واعترضت فرعون فوق هذا وذاك ضروب من الكيد حتى في داخل المدينة الجديدة التي شيدها بنفسه ولم يستطع نور آتون أن يبدد الحجب وأن يهتك المؤامرة.

وهذه الدعوة إلى السلام والمحبة والوحدة بين الأقوام لم تتهيأ لها النفوس ولم يدرك إخناتون أنه في واد، وأن غرائز الإنسان النزاعة إلى التسلط في واد آخر وبخاصة في ذلك الزمن السحيق. وكم أنذره ولاته الذين ينوبون عنه في الولايات الشمالية، ولكنه أصم أذنيه عن النذير حتى دهم الخطر هذه الولايات، وظهرت العداوة القديمة والسخيمة المكنونة.

واطمأن فرعون إلى الابتهالات والتسابيح والترانيم يتردد صداها في معابد «أختياتون»، وكان أمراء هذه الولايات يرسلون إليه الجزية ويؤكدون الطاعة وكأنما يعجمون عوده وهم يدبرون للانتقاض عليه. وسري الخطر سريان النار في الجمرات حتى اقترب من القصر الفرعوني فلم يزده ذلك إلا صلابة، وما فتئ ينقح في الصلوات الخاصة بمعبوده ويعدل في صفاته ويسمو بفكرته التوحيدية.

ولم يخل عهد إخناتون من الصراع بين الجديد والقديم واتصل الكهنة بالخونة في قصره، وتألب عليه الذين يذكرون الأمجاد الحربية لتحوتمس الثالث ولم يفطن أولئك وهؤلاء إلى رسالته التي تتضمن السلام والمحبة بين الناس جميعًا، ورأوا في إخناتون حجر عثرة في سبيل المصلحة القومية كما تصورها وفي وجه المصالح الخاصة التي جردوا منها، وسرعان ما انضم إليهم السواد من الناس الذين عجزت عقولهم عن الاقتناع بالدين الجديد والاتجاه الجديد في الحياة، والذين كانوا يحرصون كل الحرص على ما لقنوه من خرافة وغيبية جعلتهم يحتفلون بما بعد الموت أكثر من احتفالهم بالحياة، والتقى الكل على هدف واحد، واضطر إخناتون أن يشرك معه في الملك زوج ابنته «ساكرع» ثم لم تمض إلا فترة قصيرة حتى عزل بعد أن حكم سبع عشرة سنة.

وهكذا انتصر إخناتون على نفسه، وعرف لحياته غاية أسمى مما كان يستهدف معاصروه وأسلافه حتى من الملوك، وسجل اسمه بين المفكرين الأحرار، ودعا إلى التوحيد والتحرر من الكهنوت والخرافة، ووصل الفن

بالطبيعة وبالحياة الإنسانية، وأكد التعاطف بين بني البشر كافة، وآمن بإله واحد أحد لا شريك له، خلق الأحياء والكائنات يرعاها بعنايته، ويظلها برحمته وارتفع عن غريزة التناحر، فإذا فشل في الاحتفاظ بعرشه فقد نجح في السمو بالعقل الإنساني، وأصبح أول من دعا إلى توحيد الآلهة في التاريخ كله. وهكذا قدر لمصر أن تنطوي رسالتها في رسالة هذا الفرعون العبقري، كما قدر لها أن تكون وثيقة الاتصال بكل دعوة كبرى إلى التوحيد في الدين والسلام بين البشر.

بوذا

الأستاذ/ علي أدهم

"افرحوا للأنباء السارة! سيدنا بوذا قد عرف أصل الشر كله، وهدانا طريق الخلاص!

بوا يفرق شمل أوهام عقولنا، وينقذنا من أهوال الموت.

بوذا– سيدنا– يريح المتعبين، ويسعد المكروبين، وينزل السكينة على قلوب الذين ناءوا بأعباء الحياة، ويشجع المستضعفين حينما يشرفون على فقدان ثقتهم بأنفسهم ويودعون الأمل.

وأنتم يا من تعانون شدائد الحياة، ويا أيها المجاهدون الصابرون، ويا من صبت نفوسهم إلى حياة الحق افرحوا للأنباء السارة.

لقد جاء البلسم للجرحى، والخبز للجائعين، والماء للظماء، والأمل لليائسين، ولمع الضوء لمن احتواهم الظلام، وحل اليمن الذي لا ينفد للصالحين.

داووا جراحاتكم أيها المجروحون، وكلوا حتى تشبعوا أيها الجائعون، واستريحوا أيها المتعبون، وارووا ظمأكم أيها العطاش الصادون، واشخصوا بأبصاركم إلى النور أيها القاعدون في الظلام، وليغمر السرور قلوبكم يا من خانهم الحظ وتنكرت لهم الأيام.

لتثقوا بالحق أيها المحبون للحق لأن ملكوت الصلاح قد قامت في الأرض دولته، ونسخ ضوء الحق ظلام الباطل.

نستطيع الآن أن نتبين طريقنا، ونسدد خطواتنا، فقد جلا لنا سيدنا بوذا الحق.

الحق يشفي أوجاعنا، وينقذنا من الهلاك، ويمدنا بالقوة في الحياة والموت، والحق وحده يستطيع أن يغلب شرور الباطل.

افرحوا للأنباء السارة!"

بهذا النشيد الواضح الدلالة على اتجاه البوذية يستهل الكاتب البحاثة بول كيرس كتابه «إنجيل بوذا» الذي جمع مادته من شتى أسفار البوذية وسننها وتعاليمها.

ولا نزاع بين الباحثين العارفين في أن بوذا منشئ هذه العقيدة الواسعة الانتشار والكثيرة الأتباع والأشياع من أعظم وأنبل الشخصيات التي عرفها تاريخ الإنسانية، وإذا عددنا عظماء الهنود فإن بوذا يأتي في الطليعة، وقد بدأ الأستاذ واديا المفكر الهندي المعاصر فصلا كتبه عن بوذا بقوله[١٠] «قليل من الناس– سواء في داخل الهند أو في خارجها– الذين ينكرون أن بوذا هو أعظم هندي في جميع الأزمان»، والواقع أننا حينما نقترب من البوذية نجد أنفسنا إزاء عقيدة إنسانية فلسفية النزعة بعيدة الأهداف،

---

(١٠) راجع عدد أبريل سنة ١٩٤٨ من مجلة «الفلسفة» البريطانية.

وحينما تطالعنا شخصية بوذا نجد أننا تلقاء شخصية جديرة بالحب والإعجاب والتقدير سواء رضينا عن مذهبه أو رفضناه وأنكرناه، وسواء نظرنا إلى البوذا من ناحية صفاء نفسه وطهارتها وعذوبة روحه ولطافتها وجرأة أفكاره وأصالتها أو من ناحية بعد مدى تأثيره في ثقافة الهند وتوجيه تفكيرها فإنه ليس من السهل أن نجد له نظيرًا يساميه في نبالته، أو يدانيه في قداسته، أو يقاربه في تماسك منطقه وقوة حجته.

وقد كانت القوانين التي يقررها العلماء النفسيون والباحثون الاجتماعيون من ناحية الوراثة وآثار البيئة وعوامل النشأة تحتم أن ينشأ البوذا هندوسيًا محافظًا غاليًا في محافظته، ولكن قوانين العبقرية المجهولة الخفية كانت تعمل على توجيهه وجهة أخرى، وتختلف الآراء في بوذا فهل هو موجد دين أو خالق فلسفة حياة، وربما كان الجواب عن ذلك يتوقف على مدى فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا ومتصرفة في أقدارنا وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كشفت لنا فإن بوذا بمقتضى هذا التفسير لم يكن صاحب دين، وذلك بالرغم من أن أتباعه رفعوه بعد موته بقرون إلى مرتبة الآلهة، وقبلوا كلماته باعتبارها حقائق لا يتطرق إليها الخطأ، ولكن هذا من صنع الأتباع وليس من صنع بوذا نفسه، فقد كان بوذا يحاول على الدوام أن يبسط آراءه بسطًا منطقيًا، ويؤيدها بالحجة الناصعة، والتفكير المستقيم، فهو صاحب فلسفة أكثر بكثير مما هو صاحب دين، وقد كان هذا المفكر الثائر يحمل سامعيه تبعة خطيرة، ويكلفهم تكليفًا صعبًا، فمن أقواله لهم «لا تقبلوا كل ما ينقل إليكم ويروي لكم ولا تستسلموا

للتقاليد، ولا تقبلوا قضية من القضايا لأنها وردت في أسفارنا ولا لأنها توافق عقيدتكم ولا لأنها من أقوال معلمكم» فهو يلزم سامعيه هذا الإلزام المكروه وهو أن يفكر الإنسان لنفسه، ويعمل عقله، ويستقل في تفكيره! وهي من غير شك نصيحة شاقة، ومطلب عزيز، فإن الأيسر والأنفي للمتاعب والهموم هو أن يتجنب الإنسان التفكير، ويحط عن كاهله تبعته، ويعتمد على ما خلفه له المتقدمون، وتاريخ البوذية نفسه كسائر تواريخ المشكلات الفكرية يرينا صعوبة الأخذ بهذه النصيحة.

ولم يكن بوذا منكرًا للآلهة، وإنما كان موقفه منهم يشبه موقف اللاأدريين، فهو لا يشغل باله بوجود الآلهة أو عدم وجودها، وذلك لأن خلاص الإنسان في رأيه متوقف على نفسه لا على الآلهة، والإنسان في رأي بوذا هو صانع مصيره، ومن كلمات بوذا الأخيرة لأتباعه «كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بذاتها، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفًا، ولا تعتصموا بملاذ خارجي ولا تحتموا بغير أنفسكم» ومن كان هذا رأيه وتلك عقيدته فما حاجته إلى الآلهة؟ وقد وصف بعض الباحثين البوذية بأنها ديانة معطلة، ولكن الواقع أن هذا الوصف لا يخلو من مبالغة وإسراف، فإن المسألة هنا مسألة عدم اكتراث لا مسألة جحود وإنكار، ومما أخذ على البوذية أنها تؤكد جانب الحزن في الحياة وتنزع نزعة تشاؤمية، وكون البوذية شديدة الشعور بوجود الشقاء حقيقة لا تنكر ولكن كونها ديانة ميالة إلى التشاؤم مسألة فيها نظر، فبوذا قد حاول أن يبصر بطريق الخلاص من شروط الحياة وسبيل النجاة من أحزانها ومن أقوال بوذا عن النرفانة «يا أصدقائي إن القضاء على الجشع والقضاء على الكراهة والقضاء على الوهم، ذلك

كله يا أصدقائي هو النرفانة» فالنرفانة على ما يظهر ليس معناها القضاء على الحياة وإخماد جذوتها، وإنما معناها قهر الشهوات، والتغلب على النية السيئة والجهل والغضب والخوف وكل ما يجعل الحياة عبئًا ثقيلًا وهمًا مقعدًا مقيمًا، فمن استطاع ذلك يكون قد وصل إلى النرفانة، وليست النرفانة الوصول إلى العدم والفناء، وإنما هي الوصول إلى أسمى مراتب الاستنارة الفكرية والسيطرة التامة على النفس، وبعض مفسري البوذية من المفكرين الغربيين يرون في النرفانة نهاية الموقف السلبي من الحياة وأقصى ما ينتهي إليه اليأس من الوجود، ولكن المفكرين الهنود يرفضون هذا التفسير، والنرفانة في رأيهم موقف إيجابي وتسوية مناسبة لمشكلات الحياة وطريقة ميسورة للخلاص من آلامها وأحزانها، فليست هي من قبيل اليأس الذي يقول فيه البحتري:

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى تعبًا كظن الخائب المكدود

وإنما هي أمل ورجاء في الإفلات من قيود توالى الميلاد، وتناسخ الأرواح، وأسر اللبانات المتعبة، والشهوات المنهكة، والمطامع والإغراءات والأهواء والنزوات.

وقد ولد بوذا قبل المسيح بستة قرون في شمال الهند بالمنطقة المعروفة باسم مقاطعة بهار، ويقال إن والده كان من أعيان مدينة كابيلافاستو الأثرياء أو من أمرائها ورئيس قبيلة شاكياس، فهو من أبناء طبقة المحاربين، وكان اسم أبيه شدذوذانا واسم أمه مايا، وقد توفيت بعد مولده بسبعة أيام، فأرضعته شقيقتها والزوجة الثانية لأبيه وتولته برعايتها، ولفظة بوذا

معناها المستنير وأصل اسمه سدذراثه ومعناها الذي بلغ أمله، واسم أسرته أسرة جوتاما، وكان وارث إمارة أبيه.

ونلقى بوذا في أول حياته وفي ريعان شبابه أميرًا شريف النسب، منحدرًا من سلالة الفاتحين الآريين، جميل الصورة، جذاب المحيا، حلو الشمائل، وكان الابن الوحيد الوارث لثروة أبيه ومكانته المرموقة، ولكننا نجده مع ذلك كله نهبًا للهموم، فريسة للأحزان، والخواطر السود، ولقد ظفر بالحب، وتزوج حسناء فاتنة، ورزق طفلا اسمه راهولا، ولكن كل ما حفه من أسباب الثراء ودواعي المتعة ومؤهلات العيشة الراضية المترفة الناعمة لم تستطع أن تصرفه عن التفكير في مشكلة الوجود ولغز الحياة، وكانت أحزان الإنسانية وآلامها تنغص عليه صفو حياته وتطيل تفكيره في قسوة الدهر وظلم الأيام، ولاحظ ذلك والده فأهمه الأمر، وساءه ميل الأمير الشاب إلى الوحدة والاعتزال، والاستغراق في الأفكار والتأملات، فعمل على أن يجنبه رؤية المرضى وسماع أخبار الموتى ومعرفة ما يبتلى به الناس طول العمر والإمعان في الشيخوخة، وحرص على ذلك خشية أن يدفع التفكير في شقاء الحياة ابنه إلى التنسك والتماس الوحدة في جوف الغابات وقنن الجبال فلا يجد للإمارة وارثًا من ذريته، وقدر أن هذا سيثير مطامع جيرانه الأقوياء.

ويروى الرواة أن الأمير الشاب خرج من قصره ذات يوم وسار في الطرقات مثل عامة الناس فرأى شيخًا هرمًا قد نالت منه الشيخوخة، فتركت رؤيته في نفسه أثرًا باقيًا، وخرج من القصر في اليوم التالي فوقعت

عينه على رجل مريض قد شفه المرض، وأنهكه الداء، فعاد إلى القصر حزينًا مغمومًا، وخرج من قصره في اليوم الثالث فرأى ميتًا محمولًا إلى القبر فعاد يفكر في مشاهدات هذه الأيام الثلاثة ويقلبها على جوانبها المختلفة، فما هذه الشيخوخة التي تسلب الإنسان قوته ونضارته واستمتاعه بالحياة؟ وما هذه الأمراض التي تجعل حياته عذابًا متصلًا ونكبة مستمرة؟ وما هذا الموت المخيف الغامض المبهم الذي يجعل الإنسان جثة هامدة ورمة بالية؟ وما هذه الحياة الإنسانية المستهدفة دائمًا للشيخوخة والمرض والموت؟ إنها مشكلة كبيرة جديرة بأن يتخلى الإنسان عن كل علاقاته بأقرب الناس إليه وآماله الخاصة ومطالبه الفردية ليفرغ لها، ويحاول تفسيرها ومعالجة لغزها.

لقد صار يرى الحياة مأساة غاصة بالكوارث والنوازل والآلام والأحزان وعثرات الحظ وعبث الأقدار وظلم الأيام، وكان كل ما يشاهده حوله يزيده ألمًا وحزنًا، وخرج مرة في عربته ليرى العمال الكادحين الذين يحرثون أرض أبيه، فرآهم يعملون جميعهم في وهج الشمس اللافحة سواء الصغير السن منهم أو الشيخ المتهدم وقد شحبت وجوههم وعلتها قترة وتفصد عرقهم وبان عليهم الكلال والإعياء، ونمت عيونهم على ما يعانون من كرب وبلاء، وأبصر الثيران التي تجر المحاريث وهي تجهد وتلهث وقد اندلعت ألسنتها وأمت السياط ظهورها فعاد أدراجه إلى قصره وقد تكاثرت عليه الهموم والأحزان، وآلمه شقاء الإنسان والحيوان، وقال لنفسه «إن هذه الدنيا قوامها الألم وليس بها سوى الشقاء فإذا كان هناك طريق للخلاص والنجاة فأين هو؟ إني من اليأس في سجن».

وجلس وحيدًا وقد امتلأ قلبه رحمة بالإنسان والحيوان، وأخذ يكد الفكر في التماس سبيل الخلاص، ولما طال به التفكير على غير جدوى خرج إلى الطريق ومشى الهوينا فصادف رجلًا يحمل في يده مزودًا ويرتدي ثوبًا خشن النسج أصفر اللون، وتلاقت عيناهما، وخيل للأمير أنه لم يشهد من قبل شبيهًا لهذا الرجل المتسول العجيب، فقال لنفسه «من يا ترى هذا الرجل؟ إنه هادئ المحيا، وعيناه تدلان على أنه مطمئن النفس رخي البال، وما هذا المزود الذي يحمله في يده؟».

وبينما هو يمعن في تيه هذه الأفكار حياه هذا الرجل الغريب تحية حسنة، وخاطبه قائلا: «أيها الأمير العظيم إني متسول متدين، قد راعتني مشكلات الحياة وأزعجتني، ورأيت الأشياء كلها ليس لها ثباث ولا استقرار، فصدعت قيودي، وهجرت داري، لأبحث عن سعادة يمكن الاعتماد عليها والاطمئنان إليها، سعادة غير زائلة تشمل الصديق والعدو، ولا تعبأ بالثروة ولا الجمال، ولا شيء يرضيني سوى هذا اللون من ألوان السعادة».

فأخذت الدهشة من الأمير كل مأخذ، لأن هذا الرجل الغريب المتسول ردد صدى الأفكار الجوالة في نفسه فسأله في لهفة قائلًا: «وأين تلتمسها أيها الرجل الحكيم؟"

"ألتمسها أيها السيد العظيم في العزلة وفي أحشاء الغابات، فهناك في الهدوء الشامل تقيم الاستنارة، وإني أحمل هذا المزود لأضع فيه ما يجود به على المحسنون من فضلات الطعام، وهذا كل ما أطلبه من الدنيا، وسامح

أيها الأمير تعجلي السير فإن طريقي يمتد إلى الجبال حيث تنتظرني الاستنارة».

ومضى الرجل لطيته، وعاد الأمير إلى المدينة مستغرقًا في التفكير، وبحث عن والده وأفضي إليه بأنه قد اعتزم ارتياد الخلوات واللياذ بالعزلة لينصرف بكليته إلى التفكير في إيجاد طريق الخلاص لنفسه وللأعزاء عليه وللإنسانية جميعها.

ولا حاجة بنا إلى وصف ما ألم بوالده من الحزن لتصميم الأمير الشاب على ذلك، ولا إلى ذكر الإغراءات التي كانت تراوده لتثنيه عن عزيمته، وكتم سره عن زوجته، وأخذ يعد العدة للرحيل والخلاص من أصفاد الحواس، وتروي التقاليد البوذية أنه سمع في إحدى الليالي هاتفًا ينبئه بأن وقت الرحيل قد حان، فاستدعى شونا سائق عربته وأمره بإسراج جواده الأبيض الكريم، وأطاع شونا الأمر في صمت حزين، وتسلل إلى غرفة زوجته وكانت نائمة في سريرها واضعة راحتها على رأس ابنها راهولا، ومد ذراعيه مرتين ليعانقهما ولكنه أعادهما خشية أن يوقظهما ويحملها ألم التوديع، وخرج من الحجرة وترك الاثنين غارقين في الرقاد وهو يعلم العلم كله أنه قد ضحى بسعادته وسعادة زوجته من أجل البحث عن طريق الخلاص للإنسانية، وكانت سنه حينذاك لا تتجاوز التاسعة والعشرين.

وامتطى صهوة جواده، ووقف شانا إلى جانبه حائل الوجه بادي الأسى، وخاطب الأمير جواده قائلًا: «أيها الجواد الجرئ في حومة النزال والذي لم يعرف الخوف استجمع قوتك فإني في هذه الليلة امتطى متنك

لأبحث عن الخلاص، لا للإنسان وحده وإنما للحيوان كذلك» ولما سار في الطريق خلف أبواب المدينة تلفت إلى الوراء، وقال في صوت خفيض «لن أعود إلى هذا المكان إلا إذا انتصرت على الشيخوخة والمرض والموت والحزن».

وتبعه شانا، وسارا طويلًا وطويا مسافات بعيدة حتى بلغا حافة غابة ضخمة، وخطا الجواد ليشرب وتوقف عن السير، فترجل الأمير، ونظر إلى عيني الجواد قائلا «لقد حملتني فأحسنت الحمل» والتفت إلى شانا وقال له «يا أوفى الناس وأخلصهم لقد عرفتك رجلًا صادق العهد قبل هذه الليلة ولكنني الآن ازددت بك علمًا فقد صحبتني محتقرًا للمنافع الزائلة مقدمًا على الخطر مستهدفًا للوم والتفنيد، وسيذكر قلبي ذلك كله، والآن خذ الجواد وارجع به».

فأخذ شانا يتوسل إليه ويذكر له وشائج القرابة وروابط الأسرة، فأجابه الأمير «ما هي هذه الوشائج؟ لو كانت الوفاة قد أدركتني لكانت هذه الوشائج قد تقطعت، إن الأقارب في هذه الدنيا مثل أسراب الطير التي تعشش على الشجرة نفسها في الليل ويتفرق شملها عند تبلج الفجر، وحينما أجد الطريق سأعود، ولن أرجع قبل ذلك».

وجرد سيفه المرصع بالجواهر، وحز عقدة الشعر التي كان يلبسها لتدل على أنه من سلالة الآريين الأشراف، وبينما هو يفعل ذلك مر به صياد يرتدي ثيابًا خشنة، فأعطاه سيدذارثا ثيابه الفخمة ولبس ثياب

الصياد، ونظر إلى شانا النظرة الأخيرة ومضي في سبيله إلى الغابة دون أن ينبس بكلمة.

ويروي الرواة أن رغبات النفس ونزوات القلب أخذت تعمل على إغرائه وتصورت له في صورة جمال مارا الحزين ملكة الإغراء، وهي ليست الشيطان وإنما هي جماع ما في القلب من نوازع ولبانات، ولكنه قاوم ذلك كله، وانتقل إلى راجاجريها عاصمة الملك بمبيسارا صاحب مجاده، وكان يقيم هناك في كهوف تلال ونديا جماعة من النساك يدرسون فلسفات الهند القديمة آملين أن يستعينوا بها على تفسير مشكلات الحياة ومعالجة ألغازها، وقصد الغار الذي يقيم به البرهمي آلارا فقد كانت شهرة هذا الرجل قد طبقت الآقاق.

وحينما دخل عليه سيدذارثا كان مستغرقًا في التفكير فجلس في احترام على مقربة منه وسأل نفسه «أترى في يد هذا الرجل المفتاح؟ وانتظر حتى يروق آلارا أن يوجه إليه الحديث.

ووافق البرهمي على أن يدرس الأمير أسفار الفيدا والأوبانيشاد تحت إرشاده، وعلمه قواعد كثير من المعلمين والمرشدين، والثمرات المرجوة من ممارسة أساليبهم في التقشف والزهادة، ووصف له ما تعانيه الروح من آلام وأحزان وهي تنتقل في نوبات الميلاد والموت ثم بلوغها رياض الراحة وجنات النعيم حيث تقضي هنالك ملايين السنين وكيف يقذف بها ثانيًا بعد ذلك في دائرة الميلاد والموت واتخذ سيدذارثا له كهفًا يأوى إليه مثل سائر النساك وأقبل على الدرس، وأعجب النساك بهذا الشاب الذي هجر

الدنيا في التماس الأشياء الروحية وأكبروا نبل نفسه وهدوء طبعه، وأرسل إليه والده رجال حاشيته ليعود إليه وكان يتلقاهم بالبشر والإيناس ولكنه لا يلبي طلبهم.

وكان في كل يوم يهبط المدينة وقد لبس ثوب النساك الأصفر اللون وحمل مزوده ليقدم له المحسنون من الطعام ما يقيم أوده، وفي إحدى هذه الجولات أبصره الملك بمبيسارا وقال لبطانته «انظروا يا سادة إلى هذا الرجل إنه جميل الصورة ويبدو عليه الطهر والنقاء وبه سمات تدل على أنه نبيل من أصل آرى، تأملوا هدوءه ووداعته وثبات جأشه وتفرده! اسألوا أين يقصد هذا المتسول؟"

وعرف الملك قصته وأسف على نبذه للدنيا ورجاه أن يعود إليها ووعده بأن يشاطره مملكته لأنه آنس فيه القوة والجلال، ولكن سدذارثا أجابه قائلًا: «أيها النبيل الذائع الصيت المنحدر من الأصل الآري إني أصغى إلى قولك في تقدير وإكبار، وطريق الملك العظيم طريق العدل واليمن، ولكن طريقي يمتد إلى الأمام وقد تركت خلفي الشهوات الخمس، أترى الأرنب الذي أفلت من فك الثعبان يعود إليه ثانية ليزدرده؟ فعد أنت أيها الملك الحكيم إلى مدينتك السعيدة. صحبتك السلامة وسار في ركابك الخير».

فأجابه الملك «أيها الأمير العظيم أرجو أن تبلغ مرادك وتجني ثمرة ميلادك» وتبعه قليلًا هو وحاشيته تحية له واحترامًا لمكانته وعاد إلى المدينة تصحبه حاشيته.

وأظهر سدذارثا جلدًا وصبرًا في الدرس حتى اتخذه النساك أتباع الآرا مرشدًا لهم، ولكنه بعد أن أمضي سنين ظهر له في وضوح أن معالجة لغز الحياة لا تكون بالطريقة التي يتبعها البراهمة، وهي الإسراف في زيادة الجانب الروحي من النفس والمبالغة في إنمائه، ومهما يكن من الأمر فإن هذه الدراسة قد أجدت عليه وزادت بصيرته علمًا واستنارة، وهذه التجارب الروحية المتتابعة الطبقات لم تخرج عن كونها علاجًا للداء الكامن ولكنها مع ذلك لا تستأصله ولا تقضي عليه، فإنها تترك بقية منه، وهذا الأثر الباقي على قلته وضآلته يكون مدعاة لتكرار حركة الميلاد والموت، وترك أستاذه الآرا وهو موجع القلب حزينًا. وطلب العلم عند الأستاذ أوراكا فلم يجد عنده ما يريد وخاب فيه أمله، فعقد العزم على ترك الأستاذين والذهاب إلى أوريفيلا ليمارس أشد ضروب الزهد والتقشف ظنًا منه أن الروح قد تتحرر إذا حطمت قوة الجسد وتم الانتصار عليه، وأخذ نفسه بنظام صارم وقسا عليها قسوة شديدة وأذاقها الجوع المضني والظمأ الملوح ولزم الخلوة والانقطاع للفكر والتأمل، وكان يجلس طويلا صامتًا بغير حرام حتى كانت الطيور والوحوش تتحرك من حوله غير خائفة.

فضمر جسده من تقليل الطعام ووهنت قوته حتى كاد يعجز عن الحركة ولا يقوى على التفكير، وأدرك في النهاية أن هذه المبالغة في تعذيب الجسد غير مجدية وأنها ليست الطريق السوي ولا الخطة الحكيمة، ولحظ أن هذا التعذيب القاهر جعل الجسم لا يقوى على مساندة العقل، ونوي أن يعود إلى الأكل والشرب ليسترد جسده ما فقد من القوة، ورأى أن السنوات الست التي أمضاها في هذه التجارب لم تذهب عبثًا وإنما مهدت

له سبيل الاستنارة الحقة وساء ذلك جماعة النساك فقالوا: «لقد أخفق الناسك جوتاما، وليس عنده ما يعلمنا وقد حاد عن الطريق» ولكن سدذارثا وقد استعاد قوته وسار بخطوات ثابتة نحو الشجرة التي تنزلت عليه الاستنارة في ظلالها، وأبصر رجلًا يجز الحشائش لماشيته، فسأله أن يعطيه ضغثًا من حشائشه، ورأى سرحة فينانة وارفة الظلال متهدلة الأغصان فافترش الحشائش وجلس مضموم اليدين والقدمين وآلى على نفسه ألا يبرح هذا المكان إلا بعد أن يظفر بالاستنارة، وأقبل الليل وأرخى الليل سدوله فحجبه عن الأنظار.

وكانت ليلة رهيبة صاول فيها الإغراء مصاولة شديدة، وحاول العقل والجسد فيها مؤتلفين ومختلفين أن يستدرجاه ويغراه ويغلباه على أمره، وتراءت له صور حياته السالفة، صور الحب والترف والمتعة والقوة والسلطان، وناوشت عقله الشكوك وهاجمته المشكلات المحيرة، وتجمعت حوله الأحلام الخادعة والأوهام المضلة، ولكن حب الإنسانية والعطف الشديد عليها مكناه من الثبات في وسط الزوابع الثائرة واستمسك بهدفه الأصيل كالسفينة العظيمة التي تشق طريقها بين هوج العواصف وثوائر الموج إلى فرضة الأمن والسلام.

ولما انجلى الظلام وأسفر الصبح تلقى الاستنارة كاملة لا يشوبها نقص.

واضحة لا يحيط بها غموض، ورأى الماضي والحاضر والمستقبل كلا لا يتجزأ، وعرف العلل والأسباب وأسرار الميلاد والموت والانتقال إلى

حيوات جديدة، ورأى فردية الإنسان أو ذاتيته وقد تكشفت له الأجزاء التي تتكون منها جزءًا جزءا، وأبصر طريق الخلاص، وجلس البوذا– أو الذي بلغ غاية الاستنارة– يتأمل الوجود على حقيقته لأنه دخل النرقانة حيث الأمن والسلام، ومر به النهار والليل دون أن يراهما لأنه كان مستغرقًا في عالم النرفانة عالم الصفاء والنقاء والهدوء والسكينة والأمن والاستقرار، وأخيرًا رفع صوته عاليًا مغنيًا نشيد الانتصار، وجلس مفكرًا يسائل نفسه هل في استطاعته أن ينقل إلى الدنيا ما حصله من العلم.

وجاء اثنان من التجار، وهما باليكا وتابوسا، وقد ما له الطعام، وقد قبل البوذا أولهما تلميذًا له، ونهض البوذا من مجلسه قاصدًا مدينة بنارس باحثًا عن النساك الخمسة الذين احتقروه واستخفوا به ليبصرهم سبيل الرشد، وكان أستاذاه آلارا وأوداكا قد ماتا ولولا ذلك لقصدهما قبل غيرهما، وفي طريقه إلى بنارس لقي شابًا برهميًا مزهوًا بنفسه، وعني هذا الشاب مع ذلك بأمر المتسول العظيم الشخصية الذي مر به، وأراد أن ينصب له شركًا فقال له «أيها المرشد، من هو البرهمي الصالح؟» فأجابه بوذا على الفور «التغلب على الشر كله ونقاء الفكر وعفة اللفظ ونظافة الأعمال هذه كلها صفات البرهمي الصالح».

فوقع هذا الرد من نفس البرهمي الشاب المتكبر موقع التأثير وهز نفسه هنًا، فقال له في غير تردد «لماذا وجهك جميل مشرق كالقمر في صفحة الماء الهادي؟ ومن أين جاءك هذا الهدوء الذي يحف بك؟ ومن

عشيرتك الشريفة ومرشدك؟ وما طريقك ومذهبك في هذه البلاد التي يجاهد فيها كل إنسان باحثًا عن الطريق».

فأجابه البوذا «سعيد كل من رأى الحق، وسعيد من خلت نفسه من النية السيئة، وملك زمام أمره واهتدى إلى الطريق المستقيم، وأسمى ضروب الحرية هي الخلاص من أوهاق الذاتية، وليس لي عشيرة شريفة الأصل، وليس لي مرشد، إني أسير منفردًا راضيًا قانعًا».

فأجابه البرهمي المتكبر «أيها السيد المبجل، الطريق ممتد أمامك» وسار البرهمي في الطريق المخالف دون أن يعرف أن الفرصة قد عرضت له ولكنه لم يغتنمها.

وجاء البوذا إلى بنارس، وقصد المتنزه الذي يقيم به النساك الخمسة فلما أبصروه قادمًا، تهامسوا فيما بينهم قائلني في احتقار «هذا الناسك جوتاما الذي يأكل شهي الطعام ويعيش عيشة البذخ، لنضن عليه بالاحترام ولنمتنع عن الوقوف تحية له، ولنكتف بأن نفسح له مكانًا كما نفعل للناس العاديين وليجلس إذا شاء».

ولكن لما دنا منهم البوذا تقدمته مهابته وسبقته روعة محضره فلم يستطيعوا تنفيذ ما أجمعوا عليه أمرهم وهبوا واقفين وحمل واحد منهم جبته وتناول آخر مزوده وحمل إليه ثالث مقعدًا وجاءه رابع بالماء وجلس البوذا وغسل قدميه المتعبتين بالماء، وألقى على هؤلاء الخمسة أولى محاضراته فسر قولبهم ولاح بريق الفرح في نظراتهم.

وسرعان ما ذاعت أخبار البوذا وعلت شهرته، وهرع إليه شبان من أبناء الأسر العريقة والطبقات العالية الذين أنهكت أبدانهم الشهوات، آملين أن يسمعوا منه الأنباء السارة والخلاص من الأحزان، وقصة أحد هؤلاء الشبان واسمه ياساس جديرة بالذكر كان ياساس هذا من الشبان الأثرياء الذين يستطيعون بما أوتو من بسطة في المال أن يحققوا كل مطالبهم، وكانت في نفسه ناحية من النبل جعلته غير مستريح للانغماس في الشهوة والجري وراء المتعة، ففي ذات ليلة وهو جالس بين نسائه الحسان وقد نال من نفسه الملل من الحياة قام من مجلسه ومشي إلى حديقة داره وكانت أشعة القمر متلألئة وقد سجا الليل فوقف وقال لنفسه «أيها القلب ما أشد ما تلقاه! وأيتها الروح ماذا تحملين من المتاعب والأوصاب! من في هذه الدنيا يستطيع أن يهديني سبيل الخير؟"

واستهواه السري في الليل حتى وصل إلى المتنزه وكان بوذا قد جلس هناك مفكرًا متأملًا في ضوء القمر، وصافح سمعه ما قاله ياساس وردده، وعرف البوذا ما يعانيه ياساس فقد كان مثله ربيب نعمة وصاحب مال، فقال له: «يا سيدي أنت متعب، وعندي لك حياة ليست ضارة ولا متعبة، وتعاليمها لا تؤلم ولا ترهق».

فخلع ياساس نعليه المذهبتين وجلس إلى جانب هذا الغريب الذي لم يكن يدري من أمره شيئًا، وتحدث إليه البوذا عن ما تجره الشهوة من الشقاء والتعب والضياع، وعما يعمر النفس من الهدوء حينما تنبذ اللذات وتتخلص من الشهوات. فأخذت تضئ نفس ياساس أنوار الحكمة ودله

البوذا على الطريق، ونهض ياساس عند انبثاق الفجر وقال «لا أستطيع الآن أن أعود إلى الحياة التي أراها الآن حياة باطلة زائفة حمقاء مثل قصة يرويها أبله، وأرجو أن تقبل انضمامي إلى أتباعك ودخولي في مذهبك حتى أستطيع أن أقضي حياتي في تحصيل المعرفة».

فأجابه بوذا «إني أرحب بك في طائفتنا وسنعلمك طريقتنا وبذلك تبدأ حياة جديدة».

وفي التو واللحظة حضر والده يسأل عنه، واشترك هو لذلك في الحديث مع البوذا واستماله المذهب الجديد فقال للبوذا «أمر عجيب رائع حقًا، إنه مصباح في مكان مظلم، فهل يقبلني السيد ضمن أتباعه العلمانيين؟».

فاستجاب البوذا لرغبته، ونظر الرجل إلى ابنه وقد تجرد من الذهب والفضة وارتدى الحلة الصفراء، وسأل البوذا أباه قائلا «أيمكن أن يرتد ياساس إلى حياة المتعة والشهوة؟ فأجابه والده «يا سيدي أن هذا غير ممكن، وكسب عظيم لياساس أن يصبح حرًا».

وهكذا اجتمع حول بوذا الأغنياء والفقراء وكان يقبل الجميع في مذهبه بغير تفريق ولا تمييز، ولم يرفض قبول النساء، حتى اللواتي عشن منهن عيشة استخفاف وانطلاق.

ويروي الرواة قصة المرأة المومس الحسناء التي جاءته وهي تظن أن جمالها قد يكون شفيعًا لها، وأنها قد تحول المرشد عن مذهبه وتستنزله من

عليائه. كما حدث لبعض الحكماء في العصور الخالية، ولكنها حينما رأته جالسًا مضموم اليدين والقدمين ومستغرقًا في التفكير الهادئ فاضت الدموع من عينيها وارتمت على الأرض عند قدميه ولصقت وجهها بالترب، وسرها ما سمعته من محاضراته ومأثور كلماته وتعمقت المذهب البوذي حتى أصبحت من أعرف الناس به وألفت نشيدًا في تمجيد البوذا ما يزال باقيًا.

وتكاثرت جموع الناس حوله، وأوفد ستين رسولًا من تلامذته وأتباعه للتبشير بمذهبه في النواحي النائية، واستعد لزيارة والده، وسار على قدميه يتبعه بعض أتباعه لزيارة والده ورؤية داره ومهد نشأته في مدينة كابلافاستي.

وكانت شهرته باعتباره مرشدًا عظيمًا قد بلغت مسامع والده وأهل بلده، فاستعدوا لاستقباله وأقاموا الأقواس في الطريق وحملوا أكاليل الأزهار والقرابين تكريمًا لمواطنهم الذي سيعود إليهم مرشدًا عظيمًا.

وانتظره والده وحوله الأعيان والوجهاء ليستقبله، وبينما كان والده ينظر إلى ناحية الطريق المترب رأى ناسكًا شابًا في حلة صفراء يحمل مزود الصدقات وكان يستجدي الطعام من المنازل ويتلقى ما يقدم له في صمت هادئ وكان هذا المتسول سدذارثا.

فتصارعت في نفس والده عوامل الخجل والحب والغضب وعصفت بها عصف الريح العاتية بأوراق الأشجار، وقبض بيده على ثوبه وجذبه إلى

صدره وصاح بأعلى صوته قائلا «يا للعار والشنار، نجلي يتسول! لقد نزلت قبيلتنا إلى الحضيض وجللها العار وأورثها الخزي».

"هذه سنة شعبنا يا أبي».

فأنكر والده ذلك إنكارًا شديدًا وقال له «لم يسأل أحد من أجدادانا الناس الخبز».

فأجابه البوذا «أيها المهراجا، أنت وعشيرتك السامية تدعيان الانحدار من سلالة الملوك، ولكن أصلي بعيد عن ذلك، إني أنتسب إلى المستنيرين في الأيام الخالية وأفعل كما فعلوا ولا أستطيع أن أعمل غير ذلك».

ولما رأى أن والده لا يزال حزينًا قال له «تخلص من قيود الحب الأرضي، لأن هناك نوعًا أسمى من الحب، وأرجو أن يتلقى مني والدي من الغذاء الروحي ما لم يقدمه ولد لأبيه من قبل».

ودخل القصر في صحبة أبيه، ولقي زوجته ياشودارا وقد ارتدت الثياب الخشنة الصفراء وحلقت شعر رأسها، وتنازع قلبها في حضرته الحب والكبرياء ونظرت إليه نظرة عطف وإشفاق، أما هو فقد نظر إليها نظرة لم تستطع تبين مغزاها، ولم تملك أن جثت أمامه وألقت وجهها على قدميه وقبلتهما وهي تبكي بكاء مرًا ونهضت في وقار وانتبذت. فقد أدركت بعد ما بينهما من مسافات، وذكر له والده حزنها وصبرها وتعذيبها لنفسها وكيف زهدت في كل شيء تشبهًا به في أخذه نفسه بالحياة الصارمة، وسمع

البوذا ذلك كله وقال «في تؤده ونظره متجه إليها» هذا حق لقد عهدتها في الحياة السالفة من أفضل النساء وما أزال أذكر ذلك في ارتياح وسرور، وستذكر هي كذلك هذا في يوم ما، فيا أم ولدي إن الطريق الذي فتحته ومهدته لك أن تسلكيه».

وأخذت بمذهبه هي ووالده ونجله راهولا؛ وترك البوذا زوجته وولده ووالده راضين محبورين وعاد إلى شرافستي الواقعة على نهر رايني ليستأنف عمله ويتمم رسالته في التغلب على الشر وهزيمة الحزن.

وقد امتد عطف بوذا على الأحياء حتى شمل الحيوان، ومن المعروف عنه أنه حينما هم الملك بمبيسارا بتقديم الماعز قربانًا وقف يدي الكاهن ودافع عن الماعز، ومنذ ذلك الوقت أمسك البوذيون عن تقديم الذبائح قربانًا، وعند بوذا أن حلقة تطور الحياة متصل بعضها بالبعض الآخر، فليست هناك حياة غريبة عن الحياة في مظهرها العالي أو مظهرها الوضيع.

وقد قضى البوذا حياته في الإرشاد متنقلًا من مكان إلى مكان، وكان في أثناء سقوط الأمطار يأوى إلى الأديرة، وكان أينما حل يوصي بصدع قيود الجهل والشهوة ووهم تفرد النفس ويقاوم الشك والاعتقاد بالطقوس والشعائر وغلبة الحواس وكراهة الأغيار، ولكنه كان لا يرغم إنسانًا على قول تعاليمه ولا يهدد أحدًا، كان يلقي تعاليمه كما ترسل الشمس ضوءها للسائرين دون أن ترغمهم على سلوك طريق معين، وهو لا يعلم أتباعه الاستسلام للحزن أو قبوله والاستراحة إليه، لأن الحزن عنده لون من ألوان الجهل، وهو لا ينفك يوصي أتباعه باقتلاع الحزن من قلوبهم، وقد

ظل البوذا محتفظًا بوداعته وهدوء نفسه وركانة حلمه حتى بعد أن تقدمت به السن وأوهنته الشيخوخة؛ لقيه مرة شاب في مقتبل العمر وريعان الشباب وقد بلغ البوذا من العمر عتيًا فسأله قائلًا: «أيها المرشد أيعيش السيد المبجل عيشة سعيدة؟» فأجابه بوذا «نعم أيها الشاب، إني من عداد السعداء في الدنيا».

ولكن الشاب كان مشفقًا على البوذا لما رآه عليه من مظاهر الشيخوخة، فاسترسل في الحديث قائلًا له «أيها المرشد، ليالي الشتاء قرة، وقد حان أوان الصقيع، وثياب الناسك خفيفة ورياح الشتاء عاتية حادة» فابتسم البوذا وأجابه قائلًا: «برغم ذلك أيها الشاب إني من عداد السعداء في الدنيا».

وكان حينذاك قد بلغ الثمانين وقد تكاثرت المتاعب وأعباء الحياة على الجسد الفاني، ولكنه إلى اللحظة الأخيرة كان يحاول أن يرسل الضوء الذي يبدد الظلمات ويملأ النفوس بهجة وسلامًا، وأصابه المرض واشتدت به العلة، ولكنه لم ير من الصواب أن يمضي به الموت دون أن يوجه كلمته إلى تلامذته وأشياعه ويودعهم فقاوم المرض وتجلد وخطب أتباعه خطبة الوداع قائلًا «لقد تقدمت بي السن وعلتني كبرة وآذنت رحلتي بالانتهاء وقد شارفت الثمانين وضعف الجسم ووهن العظم فكونوا لأنفسكم مصابيح ولا تلتمسوا ملاذًا خارجيًا، واستمسكوا بالحق ولا تطلبوا النجاة عند أحد غير أنفسكم، والذين سيصبحون بعد موتى مصابيح لأنفسهم

ويستمسكون بالحق ولا يطلبون النجاة عند غيرهم هؤلاء هم الذين يبلغون رفيع الذرى».

وتابع تنقله وتطوافه وقوته تتناقص وصحته تسوء، ولما وصل إلى فيشالي ومعه حواريوه أمر تلميذه أناندا أن يجمع الأتباع من النواحي المجاورة، فلما التأم شملهم خاطبهم قائلًا «مارسوا الحقائق أيها الرهبان تلك الحقائق التي كشفتها لكم، وأجيلوا فيها الفكر واعملوا على إذاعتها حتى تبقى لخير الناس وإسعادهم، واعلموا أيها الرهبان أن كل شيء مركب من أجزاء تعتريه الشيخوخة وتتحلل أجزاؤه، فاعملوا على خلاص أنفسكم في جد ومثابرة، والذي يحدثكم سيكون في خلال ثلاثة أشهر من الموتى، وسأترككم وأرحل معتمدًا على نفسي وحدها، فجدوا وكونوا طاهرين أنقياء ركينين راجحي الأحلام، وراقبوا قلوبكم، والذي يستمسك بالقانون ولا يمسه من ذلك لعوب سيعبر بحر الحياة ويطوي عهد الأحزان».

وغادر مدينة فيشالى مع أناندا تابعه وتلميذه المعروف وقصد بنداجاما، وبعد أن استراح بها قليلًا خاطب أتباعه بها قائلًا «إن جهلنا بالحقائق هو الذي يجعلنا ننتقل في هذه الدائرة المتعبة دائرة الميلاد والموت ولكن السلوك النبيل والتفكير السامي والحكمة العالية تنتزع جذور التعلق بالوجود وتكسر حلقة الميلاد والموت فلا نعود إلى الأرض مرة أخرى».

وقصد مدينة كاسبنارا، وفي طريقه إلى هذه المدينة اشتدت به العلة وبرح به المرض ولكنه احتمل آلامه صابرًا متجلدًا، وعرف أناندا أن وقت فراق أستاذه قد حان فاشتد حزنه وابتعد عن البوذا حتى لا يراه البوذا

باكيًا ولكن البوذا استدعاه وقال له «لا تبك يا أناندا، ألم أخبرك أن من طبائع الأشياء أن نفارق أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا؟ وكيف يمكن أن يظل الشمل مؤتلفًا ولا يطرأ على التجمع التفرق؟ ولقد صحبتني طويلًا وكنت لي الصديق المعين والتابع المخلص الأمين الذي لا يحول عهده ولا يتبدل وده، ولقد أحسنت الصنيع فثابر على جهودك وستبلغ قريبًا رتبة الواصلين» ولما دنت الخاتمة قال لأصحابه «قد يظن بعضكم الآن أنكم بعد موتى ستصبحون بغير مرشد، ولكن الأمر ليس كذلك، إن قواعد المذهب وتعاليمه وسننه ستكون المرشد لكم حينما أغيب عنكم، وإذا كنتم في شك في أمر من أمور المذهب فاسألوني قبل أن تفتقدوني، اسألوا في حرية وطلاقة أيها الرهبان، وقد يحجم بعضكم عن السؤال والاستفسار إجلالًا للمرشد، «وإذا كان الأمر كذلك فليكن حديثنا حديث الصديق مع صديقه» فلزم الجميع الصمت، وقال أناندا «ليس بيننا من يخالجه شك» وازداد ضعف البوذا، وعرف أناندا أن الساعة قد دنت فركع وعم الصمت، وكانت آخر كلمات البوذا «اذكروا أيها الإخوان أن التقلب والتبدل والزوال كامن في الأشياء المركبة فاعملوا على خلاص أنفسكم بجد واهتمام.

فركعوا جميعهم حوله، وانتقل البوذا إلى حالة الغيبوبة وتنقل في حالات شتى حتى حالة اللاشيئية ووصل إلى توقف الحس والفكر.

وأعلن تلامذته أن مرشدهم قد بلغ أسمي درجات النرفانة، وهي درجة توقف الحس وامتناع التفكير، وعزاهم عن فقده أن كل الكائنات

محكوم عليها بأن تفقد فرديتها، وأن هذا القانون لا يستثني أحدًا حتى مرشدهم العظيم، وكل ما في الدنيا إلى زوال وفناء. وكيف يمكن أن يكون غير ذلك، واحتفل أتباعه بحرق جثته وختمت بموته حياة رجل كان من أبلغ الناس أثرًا في حياة آسيا الروحية وحياة الإنسانية جميعًا، وقد جمع تلامذته أحاديثه ومحاوراته ومختلف آثاره وأصول مذهبه ومبادئ فلسفته في ثلاثة أسفار تعرف باسم «السلات الثلاث»، وكانت محتويات هذه الكتب تتناقل بطريق الحفظ والرواية، ولما خيف عليها من الضياع جمعت في سنة ٨٠ قبل الميلاد.

وفي الوقت الذي ولد فيه البوذا ونشأ كانت الخرافات ذائعة غالبة وقد حجبت الأساطير الملفقة والأكاذيب المصنوعة جوهر فلسفة الفدانتا وصارت الشعائر والطقوس كل شيء، وشغل رجال الدين بمسائل جدلية قليلة الجدوى، ومناقشات دينية عقيمة، وملأ الشك الجو وعم القلق، وكانت هذه الأزمة المستحكمة تشير إلى ضرورة قدوم الرجل المخلص العظيم الذي يرد إلى الدنيا التوازن بين الروحيات والماديات، ويخصص العقل لخدمة الإنسانية، وحاجة بعض العصور الماسة إلى مثل هذا الرجل لا تلبي في كل وقت، وقد كان من حسن حظ الهند ظهور مثل هذا الرجل في إبان الحاجة إليه وقد بلغت الأزمة أشدها، وكان أول ما عمله البوذا هو الحملة على الكهانة والطقوس والشعائر والتقاليد، فما علاقتها بالحقائق الخالدة؟

إننا نستطيع أن نلمح المثالي في كل ما يراه الناس وما يسمعونه وما يصنعونه إذا تتبعنا العلاقة بين السبب والمسبب، وما حاجتنا إلى ما فوق الطبيعة؟ فلنعتصم بالتجارب، وقد جرب البوذا نفسه مقاومة الشك بالممارسة والتجربة وكان مصباحًا لنفسه.

وكثيرًا ما يقال عن بوذا إنه زعيم المتشائمين، ولما ظهر الفيلسوف الألماني الكبير شوبنهاور وذاعت فلسفته وصفه بعض الباحثين بأنه بوذي عصري، ومما ساعد على ترويج هذا الوصف أن شوبنهاور نفسه كان شديد الإعجاب بالديانة البوذية، وهو يقول في كتابه المشهور «الدنيا إرادة وتصور» إذا اتخذت نتائج فلسفتي مقياسًا للحق فسأكون مضطرًا إلى التسليم بأن للبوذية المكانة السامية بين الأديان، ومهما يكن من الأمر فإنه مما يرضيني أن أرى تعاليمي على مثل هذا الوفاق مع ديانة يدين بها أكثر سكان هذه الأرض» ولكن فريقًا من أنصار بوذا يقولون إن بوذا يعلمنا الحزن ويعلمنا كذلك كيف ننتزع جذور الحزن ونظفر بالأمن والطمأنينة، ولا يستطيع أي مفكر أن ينكر وجود الأحزان والكوارث وخيبة الآمال في الحياة وقسوة الطبيعة سواء في الحيوان أو الإنسان، وكل فلسفة تشير إلى ذلك وتحاول أن تفسر لغزه، وبوذا لم يحجم عن وصف العلة وبيان الأعراض، والطبيب الحق لا يتردد في ذلك لكي يصف الدواء ويوضح طريقة العلاج، وبوذا غير يائس من الخلاص لمن اتبع مذهبه ودان بعقيدته، وفلسفته تبدأ ببيان ما يسميه الحقائق الأربع النبيلة، فالحقيقة الأولى تعترف بوجود الشقاء، والحقيقة الثانية تسلم بوجود سبب لهذا الشقاء، والحقيقة الثالثة تقرر أنه يمكن إزالة هذا السبب، والحقيقة الرابعة تؤكد لنا أن الطريق

إلى تحقيق ذلك ميسور للجميع، والبوذية تحاول إنقاذنا من حبائل الشر، والشر في رأيها أصيل في الوجود وليس سببه خطيئة الإنسان، وحيثما يوجد الوجود يصحبه الشر، ومن أجمل نواحي الديانة البوذية إشادتها بفضائل التواضع والصبر والاحتمال والعطف والشفقة ورقة الأخلاق وعذوبة النفس وصفاء الطبع والعفة والطهارة وإيثار التضحية ونبذ الأنانية، على أن الاخلاق الفاضلة الرضية ليست عند البوذيين كافية للوصول إلى النرفانة، وإنما السبيل المباشر إلى النرفانة الاستغراق في التأملات والتزام الزهد والتقشف، والحكمة المأثورة تقول «لا كرامة لنبي في وطنه» فليس من المستغرب أن تهزم البوذية في الهند موطنها الأصلي لتعيش في الصين واليابان ويرى بعض المفكرين أن من سوء حظ الهند خروج البوذية منها لأن الديانة البوذية بنزعتها الإنسانية تقاوم نزعة التفريق بين الطبقات التي عاقت نهضة الهند، وصدعت وحدتها وجعلتها هدفًا للغزاة والمستعمرين. وظروف الهند الراهنة تدل على أنها ما تزال في حاجة إلى رسالة البوذية الموحدة للصفوف الجامعية لمختلف الطبقات، وقد صدق الأستاذ واديا الهندي في قوله «لقد أشار بوذا إلى الطريق وعلى الهند أن تتبعه».

زرادشت

د. يحيي الخشاب

يقول الفرس إنه نبيهم قبل الإسلام، ويقولون إن كتابه المسمى «أوستا» كتاب منزل أوحى به إليه ربهم «أهورامزدا». وقد اتبع الفرس عامة دين زردشت قبل الإسلام. فلما دخلوا في دين الله أفواجًا، ثبتت قلة قليلة منهم على دين آبائهم، وهاجر جماعة آخرون إلى الهند حيث أقاموا منذ الفتح العربي لإيران. والذين بقوا على دين زردشت حتى الآن يسمون بالبرسيين.

هذا الدين عرفه الكتاب المسلمون بعدة أسماء، فسموه «الثنائية» لأنهم نسبوا إلى أتباع زردشت أنهم قالوا بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر. وسموه «المزدية»، لأنهم قصدوا لفظ «أهورامزداد» الذي أطلقوه على إله الخير. وسموه «المجوسية»، لأن هذا الدين عرف في قبيلة المجوس، أول ما عرف في إيران، فاشتهر باسم المجوسية. وسموه «الزردشتية» نسبة إلى زردشت. وسموه «عبادة النار»، لأن المظهر الخاص بالعبادة في هذا الدين يتم في بيت النار الذي يحل محل الكنيسة عند النصارى والمسجد عند المسلمين.

وزردشت عاش في النصف الأخير من القرن السابع والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد. ظهر في آذربيجان، في الشمال الغربي من

إيران. وتصوره الروايات القديمة رجلا تحفزه لإصلاح بلاده عوامل روحانية قوية، وأنه أتى بمذهب عملي لإصلاح حال أمته، والمؤمنين به، وأنه أخذ يجادل عن مذهبه بما أوتيه من ملكة الإقناع حينًا وبالقوة حينًا آخر، وأن أحد الملوك الإيرانيين قد دخل في ملته فازداد زردشت بذلك قوة، وأن إحدى بناته تزوجت أحد الوزراء عند هذا الملك، فاشتد بذلك ساعد زردشت. ثم إن زردشت أخذ يدعو لدينه بين التورانيين، أعداء الإيرانيين، وظل يحاربهم حتى قتله توراني منهم، فمات زردشت شهيدًا في سبيل دعوته وفي سبيل أمته كذلك.

وهذا الاستشهاد زاد في مكانته وفي تأييد مذهبه عند قومه.

ويتحدث الكتاب عن الصلة بين الزردشتية واليهودية، وعن الصلة بينها وبين المسيحية، وقد كتبوا في تأثرها بما سبقها، وتأثيرها فيما تلاها.

وأما عن صلتها بالبوذية، وكانا في زمنين متقاربين، فالفارق بين الديانتين واضح في الأسس التي قامت عليها كل منهما. فالزردشتية دين عملي، دين كفاح وعمل ونظام. والبوذية دين زهد وتوكل.

ومن أجل هذا ارتبط المجد السياسي لإيران قبل الإسلام بمدى تمسكها بدين زردشت، فكلما روعي تطبيق قواعد الدين كلما ارتقت إيران وناهضت ونهضت. وحين يضعف الروح الديني تخمل الدولة وتخور ويغلبها الرومان وتفسد فيها حياة الناس.

وقبل أن تصبح الزردشتية دينًا رسميًا للدولة، كانت حرية العقيدة سائدة في إيران. ولكن غالبية الشعب كانت تدين بدين زردشت.

كان لملك إيران دينه الذي يرتضيه، وكان لقبيلة المجوس دين زردشت، وكان للشعب عقائده التي تسودها الخرافات، ولكن أغلب هذا الشعب كان يميل إلى دين قبيلة المجوس التي أخذ أفرادها على عاتقهم التبشير به بين الناس.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد، غلب الإسكندر المقدوني دارا الثالث ملك الفرس، ودخل إيران فاتحًا. وأراد الإسكندر أن يستقر حكمه في البلد المفتوح، ورأى أن يقتل من أجل ذلك جميع أشراف إيران حتى يذهب إلى الهند والصين غازيًا فلا يكون في إيران من تحدثه نفسه بالثورة عليه وطعنه في ظهره. ولكنه استشار أستاذه أرسطو فيما عزم عليه قبل إنفاذه، فكتب إليه الرسالة المشهورة التي نصحه فيها بأن «فرق تسد». نصحه بأن يقطع إيران تقطيعًا، وأن يمنح كل شريف من أشرافها قطعة منها، وأن يزين له مفرقه بالتاج وأن يجلسه على العرش.

حينئذ يحرص كل ملك على ملكه، ويسعى كل منهم إلى التقرب من الإسكندر والتملق له، ويطمع كل منهم في عطفه واكتساب رضاه، ولا يفكر أحد منهم في لم شمل الوطن الممزق، لأن هذا يفقده التاج والعرش وما فيهما من مظاهر الأبهة والجاه. ونصحه كذلك بأن يجمع المسطور من الأوستا، كتاب الدين، فيحرقه، وأن يشتت رجال هذا الدين تشتيتًا، وأن يصب عليهم من العذاب ما يحول دون تبشيرهم به، وذلك لكي يقضي

على القوة الروحية في الشعب بعد أن أفقد الوطن وحدته السياسية واشتري ذمم الأشراف بالتيجان الزائفة.

ونجح أرسطو في مشورته التي اتبعها الإسكندر. وظلت إيران ممزقة وظل دين زردشت معطلا أكثر من خمسة قرون.

ومضى الزمن، وذهبت دولة الإسكندر، والأمة ذات التاريخ تفكر في استعادة ماضيها، والضمير يصحو، والشعب يشمر عن ساعده، والداعي يدعو إلى الوحدة، ويهتف باسم الوطن الواحد، إيران. إيران التي ينبغي لها أن تجادل عن نفسها ضد الرومان.

وكان ساسان سادنا لبيت من بيوت النار في مدينة اصطخر، كان يشعر بانجلاء الغمرات، وقد أدرك أن الاستعمار الإغريقي قد زال، وأن آثاره قد بدا عليها الهزال. وشعر بميل الحكام إلى دين زردشت، وبالتسامح مع رجاله. فأخذ يدعو إلى العمل على إلغاء هذه العروش الزائفة التي مزق الإسكندر البلاد من أجل تفريقها على نفر من الأشراف ليسودهم جميعًا، فكانت الدعوة إلى وحدة الدولة، وأخذ يدعو إلى إقامة مبادئ دين زردشت وجمع كتابه الأوستا، فكانت الدعوة إلى وحدة الدين.

وربى ساسان ولده بابك تربية عسكرية فبدأ محاولة الوحدة السياسية بالقوة ونجح بعض النجاح، ثم أتيح النجاح الكامل لولده أردشير، فحكم إيران حكمًا موحدًا وامتد سلطان الدولة على الإقليم كاملا. ومنذ ذلك

الوقت وضع دستور إيران على أساس الفكرة القديمة المشهورة: الدين والدولة توأمان.

وقامت الدولة الساسانية، السابقة على الإسلام، على أساس مبادئ دين زردشت.

أهورامزدا، رب زردشت، إله واحد. خلق الدنيا بخيرها وشرها.

وخلق الإنسان وجعل له عقلا، وأعطاه القلم بيده، وتركه يسطر في لوحه ما يريد، بعد أن بين له طرق الخير وأمره بإتباعها، وبين له طرق الشر وأمره بمقاومتها. فلا تواكل عند زردشت، وللمرء الاختيار.

أهورامزدا حين خلق الإنسان، أعده لخوض معركة مستمرة، لا راحة منها، بين أصلين، أحدهما الخير والثاني الشر. أحدهما النور والثاني الظلمة. أحدهما طيب والثاني خبيث.

الرجل الذي يعمل الخير ويتجنب الشر ليس بكامل الإيمان عند زردشت، لأن المؤمن عنده هو من يعمل الخير ويقاوم الشر. إنه لا يوافق على السلبية في الدين. وإثم من يرى الشر ويسكت عنه، اكتفاء بأنه هو خير نفسه، لا يقل عن إثم من ارتكب الشر ذاته.

لأن المعركة الأزلية قائمة بين الأصلين، ورسالة زردشت قائمة على حث الناس على الوقوف في صف الخير والعمل الجدي على قهر الشر.

والخير والشر متشابكان، وليس أحدهما مستقلا عن الآخر.

وهما يتصارعان في العالم الذي نعيش فيه. يتصارعان في الوطن الواسع الأرجاء، ويتصارعان في الأسرة المحدودة العدد، ثم يتصارعان في نفس الإنسان. وعلى الزردشي أن يحارب في هذه الميادين الثلاثة؛ والنصر بجانبه إذا بدأ بنفسه، لأن جهاد النفس أشق الجهاد.

والمؤمن الحق الذي ينفذ وصية زردشت ويعمل بمبادئه في مقاومة النفس الأمارة بالسوء، هو الذي يتبع في سلوكه ثلاثة مبادئ: الفكر الطيب، والقول الطيب، والعمل الطيب. والدولة ترقى وتسعد كلما كثر المؤمنون من هذا النوع.

أهورامزدا، رب العرش، يعاونه ملائكة خيرون. يمثلون المعاني الطيبة التي يحب زردشت أن يتحلى بها أتباعه. فهو حين يريد أن يقول للزردشتي إن عليك أن تكون حسن الطوية، طيب الفكر، يقول له إن من ملائكتي الذين يجلسون تحت عرشي ملاكًا اسمه وهو منه، هو الملاك الذي يحمي الفكر الطيب. وهذا الملاك وأمثاله من مساعدي أهورامزدا لهم من القداسة ما يحمل الإيراني على إرضائهم وإتباع الأوامر بشأنهم. وهكذا جعل زردشت للفكر الطيب، وللتقوى، وللحكومة الصالحة، وللإقدام، وللصحة، وللآخرة، ملائكة مقدسينن مستعينًا بالدين لتقويم سلوك الناس، بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين حكامهم، وبينهم وبين ربهم.

وكما أن الملائكة تحمي المعاني الكريمة التي يعمل زردشت على غرسها في نفوس أتباعه فإنه قد جعل من هذه الملائكة حماة للدولة كذلك. فالملاك الذي يحمي الإقدام، أي الذي يطلب إلى الرجل أن يكون شجاعًا،

يحمي الوطن. والملاك الذي يحمي الفكر الطيب يحمي الحيوانات النافعة. والملاك الذي يحمي الحكومة الصالحة يحمي المعادن.

والملاك الذي يحمي الصحة يحمي المياه فلا يلوثها أحد بأن يلقي فيها جثة حيوان أو غيرها مما يفسد الماء. والملاك الذي يحمي الآخرة يحمي الزرع ويحث على أن تزرع ولو كان الثمر لغيرك، ويحرم ترك الأرض بورا.

وللشر أعوان يعوقون رسالة الخير. وأهم عون للشر الكذب. والرجل الذي يكذب يغضب ملاك الاستقامة (آشا) وملاك الصدق (اشتاد) ويقول هيرودوت إن الفرس يعلمون الطفل منذ بلوغه الخامسة من عمره ثلاثة أشياء: ركوب الخيل والرماية والصدق.

ومن تعاليم زردشت أن الروح لا تفنى، وأنا تنعم أو تشقى بلذائذ الحياة أو محنها ثلاثة أيام بعد الموت. وبعد ذلك تحملها الرياح حتى تصل إلى الصراط. وهناك تجري محاكمتها أمام ثلاثة قضاة، فتوزن أعمالها من خير وشر، ويحكم عليها طبقًا لموازينها خفت أو ثقلت.

بعد هذا تمر على الصراط، فإذا كانت خيرة كان عريضًا فتمر آمنة، وإلا كان دقيقًا فتسقط في هوة الظلمة.

والأرواح الخيرة تمضي إلى الجنة، وتتردى الشريرة في جهنم.

وأما من تعادلت موازينه فيبقى في مكان يتوسط الجنة والنار، الأعراف.

في هذه الأماكن الثلاثة تنتظر الأرواح حتى يوم القيامة.

ويوم القيامة يبعث أهورامزدا «مخلصًا»، ويرد إلى الأرواح حياتها الأولى، على أن تحاكم ثانية في الآخرة، بعد أن يطهر الأرض سيل من المعادن المذابة. وحينئذ تنشب معركة أخيرة بين أصلي النور والظلمة، بين الخير والشر، وينتصر الخير ويحترق الأصل المظلم إلى الأبد.

وعلى هذا النحو حمل زردشت أتباعه على أن يعملوا لدنياهم ولآخرتهم، متخذًا من آرائه الدينية وسائل لمعاونته على تثبيت رسالته في نفوسهم.

ويحث زردشت المؤمنين على تكوين الأسرة، والوطن الناهض مجموعة من الأسرات الصالحة. ولذلك حث زردشت على الزواج.

فالمتزوج في دينه خير من الأعزب. ومن له ولد خير ممن لا ولد له، وكلما كثر أبناء الرجل كلما ازداد قربًا من ربه، ذلك لأنه يزيد من عدد المؤمنين في الأمة.

وهو يأمر الزوج وزوجه على السواء بالاستقامة والعفة. وديانة زردشت تنهي عن الفحشاء، ولذلك جعلت الرباط العائلي، عن طريق الزواج، جزءًا من أوامر الدين. وقد كلم أهورامزدا ابنة زردشت حين تزوجت فقال: «يا بوروشيستا، يا صغرى بنات زردشت، إن أباك قد اختار لك هذا الرجل زوجًا، وهو مؤمن بالروح الطيب، مؤمن بالاستقامة وبأهورامزدا. فزوديه بنصائحك وأتمي عباداتك.."

ثم يقول: «إني أتحدث إلى العذارى وإلى من تقدم لخطبتهن، استمعوا إلى بآذان صاغية وقلوب واعية، اسلكوا في حياتكم سبل الخير حتى تسعدوا في حياتكم العائلية».

والمرأة الطيبة التي تتحلى بالعفة تقارن بالملائكة من النساء. هي المرأة الفاضلة، التي تجد لديها الأفكار الطيبة والأقوال الطيبة والأعمال الطيبة، التي حسن تأديبها، الكاملة، المطيعة لزوجها، العفيفة، إنها مثل ملاك التقوى...

والمرأة الخبيثة، عند زردشت، أسوأ من الحية أو الذئبة: إن نظرتها تجفف ثلث ما يتفجر بقوة من الماء؛ وتسلب ثلث ما في الزرع المزهر من بهاء؛ وتفقد الأرض الطيبة ثلث غناها؛ وتفقد الرجل الطيب ثلث إقدامه، وثلث توفيقه، وثلث وفائه، «من أجل ذلك أقول لك يا زردشت إن مثل هذه المرأة أجدر بالموت من الحيات الزاحفة أو الذئاب العاوية أو أنثى الذئب تداور لتنقض على القطيع أو الضفدع التي تقفز إلى الماء ومعها الآلاف من صغارها».

والمجتمع عند زردشت قائم على الطبقات. وزردشت نفسه حريص أشد الحرص على أن ينسب نفسه إلى أقدم ملوك تاريخ إيران. وهو، ورجال الدين الذين ينتسبون إليه، قد أرجعوا نسبهم إلى ملوك أقدم من الذين ينتسب إليهم الساسانيون. وذلك كي يجعلوا من رجال الدين الطبقة الأولى في الدولة. وهو يجعل الناس ثلاث طبقات: ١- رجال الدين، ٢- رجال الحرب، ٣- الحراثين.

فأما رجال الدين فهم الذين قامت عليهم الدولة، وهم الذين أقاموا الأسس التي بني عليها المجتمع، وهم بعد هذا يقومون بوظيفة القضاء بين الناس. هم دعاة دين زردشت، فهم دعامة الإصلاح في إيران.

وأما رجال الجيش فهم الأساورة (الفارسان)، الذين يذودون عن الوطن، والذين يقهرون أعداءه، وهم الذين يبيعون أرواحهم رخيصة في سبيل أمتهم، وهم الذين ينفقون على أنفسهم وخيولهم وأسلحتهم.

وأما الحراثون فهم الذين يفلحون الأرض، وهم الرجالة الذين يعاونون الفرسان في الحرب، وهم سائر أهل المهن. ترك لهم زردشت المجال فسيحًا ليسعوا في الأرض يطلبون الرزق، وقد يثري الرجل منهم إلى حد أن يقترض منه الملك المال. ولكن هذا لا يتيح له أن ينتقل من طبقة الحراثين إلى طبقة أخرى إلا بشروط معينة قلما تتحقق.

وحين تقدم المجتمع الإيراني زاد الطبقات طبقة رابعة، هي طبقة الكتاب. وبمضي الزمن أصبح نظام الطبقات عقيمًا، وحدثت في إيران فتن نتيجة لهذا النظام، وأشهر هذه الفتن فتنة مزدك، الذي ثار أتباعه وأحرقوا الوثائق التي سطرت فيها الأنساب، ونادي الناس بالمساواة، لا شريف ولا وضيع، ونادوا بما هو أكثر من ذلك. وقضي على الفتن، وقتل مزدك، ولكن نظام الطبقات زلزل زلزالا عنيفًا. وكان حديث الفرس، حين بدأت دعوة الإسلام في بلاد العرب، يدور حول ما يسمعون من أن الناس سواسية، وأن أفضلهم عند الله أتقاهم.

وقضي الإسلام على نظام الطبقات في إيران. ولم يكن بدعة عند زردشت، ولكنه كان نظامًا عامًا عند الدول في ذلك العصر.

وحث زردشت على التعليم. والأوستا نفسها ليست كتاب دين فحسب، ولكنها كتاب علم كذلك. وحين أحرق الإسكندر هذا الكتاب حرص قبل إهلاكه على أن يحفظ الجزء المتعلق بالعلوم منه، ثم أمر العلماء بنقله إلى اللغة اليونانية. فما يتعلق بالطب وتقويم البلدان والنجوم قد حفظ في اللغة اليونانية بعد حرق الأوستا.

وحين جمع هذا الكتاب أيام أردشير أعيد ما كان فيه من العلوم عن اليونانية.

وقد عمد زردشت في البرنامج الذي أعده للتعليم إلى أن يقوي الروح الوطني لدى الشعب الإيراني عامة. والذي يتعلم لا يخدم نفسه ووطنه فحسب بل يرضي ربه أيضًا، لأن التعليم جزء من الدين.

ويقول جزينوفون إنه رأى، لأول مرة، المدارس في إيران تتجه نحو تعليم الشعب حب الوطن: «في كل مدينة فارسية ميدان فسيح، يحرم على الناس أن يتخذوا منه سوقًا، هناك شيد قصر الحكومة والعمائر الأخرى العامة. وفي جوانبه الأربعة أربع مدارس، مدرسة للأطفال من الخامسة إلى السادسة عشرة؛ والثانية للشبان من السادسة عشرة إلى السادسة والعشرين؛ والثالثة للرجال الناضجين؛ والرابعة خاصة بالشيوخ.

وكان البرنامج الذي يدرس في هذه المدارس الأربع رائعًا. وبهذه المدارس حلقات للمناظرة والبحث في موضوعات عملية، وكان يدير هذه الحلقات معلم شيخ. وكانت تستغرق معظم الوقت الدراسي. وأما بقية الوقت فكان يصرف في التدرب على الرماية والفروسية."

ثم يقول جزينوفون:

"إن الفرس يبعثون أولادهم للمدرسة كي يتعلموا الاستقامة والصدق كما نبعث نحن أبناءنا ليتعلموا الآداب والفنون».

وحين يتحدث زردشت عن الصدقات التي تجب للفقير عند الغنى، لا يقصر كلمة الصدقة على الحاجة المادية لدى المعوزين، إنما يتحدث كذلك عن الصدقة العلمية التي تجب للجهلاء على أهل المعرفة، لتسد الحاجة العقلية والروحية. ولذلك أوصى زردشت بإباحة التعليم للناس كافة، رجالا ونساء، طيبين أو خبيثين.

يقول أهورامزدا:

"إذا جاءك إخوان لك في الدين أو أهلك أو أصدقاؤك بحثًا عن المعرفة، فعلمهم العلم مزودًا بكلماتي"

وقال: «من ينشد نور العلم ينشد صدقة من معلمه."

وسأل زردشت ربه عن أرفع مراتب الإنسان فقال: «تعليم من هم أهل لتلقي العلم كي ينشروا الفضائل بين الناس».

وقال: «إن عالمًا، قليل العلم، يحاول إنارة عقول الناس بما يعلم خير من عالم واسع العلم ضنين به».

ولا يقصر زردشت التعليم على من هم أهل لتلقي المعرفة، بل هو يرى أن خير خدمة يسديها رجل للمجتمع ليست في أن يكون بذاته مستقيمًا، ولكن هي أن يقوم اعوجاج أفراد المجتمع الذين حادوا عن الخلق الطيب.

فالتعليم ليس قاصرًا على من أوتي الأخلاق الفاضلة ولكنه واجب كذلك لمن لا خلاق لهم عسى أن تصلح بالمعرفة أحوالهم.

ويسوي زردشت بين القاضي الذي يعزز المجرم ويوقع عليه من الجزاء ما يتناسب مع جريمته، وبين المعلم الذي يحاول أن يصلح نفسية هذا المجرم بتلقينه علمًا قد يزيل من نفسه شهوة الجريمة.

فهذا المجرم الجاهل، هو في نظر زردشت، ضحية الجهل، والمعلم مسؤول يوم القيامة عن إهماله في إرشاد هذا المجرم إلى الصراط السوي، يقول: «ولسوف يرى كل رجل أعماله، حسنة أو قبيحة. ولسوف يمتاز المجرم يوم الحشر، ويبقي ظاهرًا ظهور النعجة البيضاء وسط النعاج السود. ويعتب المجرم حينذلك على خلانه الذين عملوا صالحًا في دنياهم، وكان لهم من المعرفة نصيب ولم يأبهوا بهدايته وتقويم خلقه.

ويقول لهم: لماذا نسيتموني؟ لماذا تركتموني ولم تعلموني طريق الفضائل؟ وعندئذ يترك خلانه الأخيار مكانهم في الجمع، وقد علاهم

الخجل، وقد ختم الله على قلوبهم وألسنتهم لما فرطوا من حق إرشاد صاحبهم المذنب المسكين».

وانتشار المدارس في إيران قبل الإسلام أمر مشهور، ولكن نريد أن نتحدث عن عناية زردشت بالتعليم خاصة، ولذلك نضرب المثل بما جاء في الأوستا عن الطب. فقد فرق زردشت بين صنفين من الأطباء: طبيب الجسد، وطبيب النفس. وأصول الطب عند الإيرانيين زردشتية كلها، وهي سابقة على الطب اليوناني، وكانت العناية بالطب النفساني لا تقل عن عنايتهم بطب الجسد، حتى إنهم جعلوا، حين نصوا على طرق العلاج، الأوستا العلاج الأول للأمراض. وهي عند زردشت خمسة طرق: الأوستا، الكي، الجراحة، الأعشاب، البخور. ويرى زردشت أن كلام أهورامزدا (الأوستا) أبعد أثرًا من الطرق الأربعة الأخرى.

ونص زردشت في كتابه على الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الطبيب فقال إن عليه أن يداوم القراءة والإطلاع في علم الطب حتى ينتفع بتجارب الأطباء، وعليه أن يعرف تشريح أعضاء الجسم وأن يعرف أنواع الأدوية، وأسماء الأعشاب المختلفة وخصائصها، وعليه أن يكون رقيق الحاشية حلو الحديث صبورًا مع المرضي.

واشترط زردشت على من يمارس مهنة الطب أن يبدأ بعلاج كافر أولا ثم يبدأ بعد شفائه في معالجة المؤمنين. ويحرم الطبيب من حق ممارسة الطب إذا عالج ثلاثة أشخاص فماتوا.

وعلى الطبيب أن يعود مريضه كل يوم وكلما اقتضى الأمر طوال المرض. ومن حقه أن تقدم له أسرة المريض الغذاء الفاخر والحصان السريع، وإذا اضطر إلى الإقامة مع المريض وجب إعداد مكان لائق لمبيته.

وعلى الطبيب ألا يسرف في طلب المال. والأوستا تقسم الأطباء أصنافًا ثلاثة من هذه الناحية: صنف يراعي الرفق الذي أمر به الدين وحده. وصنف يراعي جانب الرفق أكثر من مراعاة المال. وصنف يراعي المال أكثر مما يراعي الرفق. والصنف الأول أقرب إلى أهورامزدا والصنف الثالث يغضبه.

وتقارن الأوستا بين المرض والإثم. فالرذائل كالجهل والخبث والغرور والغضب والكبرياء والشهوة قد جعلت أسبابًا للأمراض النفسية بجانب العلل الجسمانية.

وكان للطب الزردشي أثر كبير في ازدهار علوم الطب في إيران واشتهارها بهذا الفرع من العلم. وقد كانت مدرسة جنديسابور من أهم مدارس الطب قبل الإسلام وظلت كذلك في القرون الإسلامية الأولى.

ومن الأطباء المشهورين في إيران برزويه الذي جاء بكتاب كليلة ودمنة من الهند أيام أنو شروان، ونقله إلى اللغة الهلوية.

سأل زردشت ربه عن خير الطرق لإعلاء كلمة دين مزدا؟ فأجابه: «يا زردشت إنها زراعة القمح. إن من يزرع القمح يزرع الاستقامة. إنه

يعين دين مزدا مائة خطوة؛ ويرضعه من ألف ثدي، ويقويه بعشرة آلاف هبة."

وجاء في الأوستا:

"حين تبذر حبوب القمح تذعر الشياطين، وحين تنبت تضطرب وتمرض، وحين ترى سيقانه تبكى، وحين ترى السنابل تدير ظهرها، وإنها لتولى فرارًا من البيت الذي يخزن فيه القمح."

كانت الزراعة عامة من أهم النواحي التي دعا زردشت أتباعه إلى النهوض بها. وهو يدعو الناس إلى العمل لفلاحة الأرض وزرعها.

ويأمر من يقطع شجرة بأن يغرس شجرتين قبل أن يمد يده بالقطع.

والزراعة عند زردشت أهم سلاح لمحاربة الجوع، والزراعة تقضي على البطالة. والبطالة قرينة الشهوة والعار، إنها تدعو شياطين الجوع والعطش، وتدعو المرض والألم. وتدعو الخضوع والذلة.

سأل زردشت ربه عن المكان الثالث الذي تبلغ فيه الدنيا أقصى سعادتها فقال:

"يا زردشت إنها تكون كذلك حيث يزرع المؤمن القمح والبرسيم والفاكهة، وحيثما يروي الأرض الجفاف أو يردم المستنقع منها."

فدين زردشت كان يحرم على المؤمن إهمال الأرض، ويفرض عليه إصلاحها. ولما سن أردشير القانون أتبع ما قال به زردشت فكان ينزع ملكية الأرض البور التي لم يفلحها صاحبها، ويعطيها لمن يقدر على استصلاحها وزرعها.

وقد عبر أحد المؤرخين وهو يتحدث عن زردشت والزراعة بأن هذا هو «إنجيل العمل». والحق أن زردشت كان ينظر إلى الزراعة على أنها العامل الأول لنهضة الأمة، لأنها توفر للشعب قوته، وتقيه، في سنين الجفاف، شر القحط، بما يخزن من فائض الغلات. ولذلك فإنه يحث الناس على السعي والعمل، وأهم عمل للحراثين، غالبية الشعب، هو الزراعة. يقول: «أفيقوا أيها الناس، وانهضوا، وسبحوا بخير التقوى، واطردوا الشياطين؛ وإلا فإن الكسل، الممدود اليدين، الذي يثبط همم الدنيا كلها، يعود فينقض عليكم.. أيها الناس طالما قد رقدتم."

وامتد إصلاح زردشت إلى العناية بالحيوانات النافعة. وكان للطب البيطري شأن في العلوم الطبية في المدارس، وله في الأوستا نصيب كبير.

فالبقرة التي تجر المحراث فيحرث الأرض، والتي تفيد الأرض سبخًا من فضلاتها، والتي تمد الحراث بلبنها، جديرة بأن يعني بها زردشت وأن ينص على وجوب العناية بها. وكذلك المواشي الأخرى التي تفيد في حياة الحراث وبقية الناس. وكذلك كلب الحراسة الذي لا غنى للراعي عنه.

سأل زردشت ربه عن المكان الثاني الذي تبلغ فيه الدنيا أقصى سعادتها فقال: «يا زردشت إنه البيت الذي فيه زوج صالحة وماشية وأطفال.

والذي تتناسل فيه الماشية، وتزداد فيه التقوى، ويكثر فيه غذاء الحيوان، ويكون الكلب فيه سعيدًا."

وسأل زردشت ربه عن المكان الرابع الذي تبلغ فيه الدنيا أقصى سعادتها فقال:

"إنه يا زردشت حيث تكثر الماشية والرعاء."

ولما سأل ربه عن المكان الخامس قال له: «يا زردشت إنه حيث يكثر روث البهائم فيكثر السماد.»

ويقول زردشت: «ليكن أهورامزدا في عوننا كي نسعد الملاك وهومنه الذي يحمي الحيوانات النافعة، والذي ينشر السلام بين المخلوقات الطيبة. الحيوانات كلها في رعايته. إن من يريد إرضاءه عليه أن يحافظ على الحيوانات الأليفة النافعة ويرعاها ويهيء لها مكانًا أمينًا. وعليه أن يدافع عنها إذا أوقع بها قساة القلوب من غلظتهم عذابًا. ويجب ألا يعطي الحيوان لرجل ظالم جبار. وعلى المؤمن أن يدبر للماشية علفها في الصيف حتى لا يجبرها على الخروج لترعى في برد الشتاء القارس. وحرام على المؤمن أن يبعد عنها صغارها وأن يحرمها من ألبانها. فإن الحيوانات الأليفة في هذه

الدنيا هي الصورة الثانية لوهومنه، الذي يحمي الفكر الطيب ويحميها جميعًا."

هذه صورة عاجلة لما كان عليه دين زردشت من الاتجاهات العملية في الحياة. ومن أجل هذا الاتجاه العملي اتخذه مؤسس الأسرة الساسانية، دينًا رسميًا للدولة واتخذ من هذا الدين برنامجًا عمليًا لحكمه وحكم أسرته من بعده. وقد حافظ رجال دين زردشت على رسالتهم في بادئ الأمر، لأنهم أحسوا بأنهم مسئولون عن البلاد التي شرع من أجلها زردشت هذه الشريعة العملية. ولم يقتصر نشاط رجال الدين على وظائفهم الأصلية وحدها، ولكن نفوذهم امتد على كثير من نواحي الحياة العملية؛ وحين انطلقوا من بيوت النار إلى دواوين الحكومة، ألهتهم مظاهر الحكم عن رسالتهم الروحية التي كان عليهم القيام بها.

شاركوا الأشراف والأساورة واضطروا إلى مجاراتهم في معيشتهم، واقتنوا الأموال الكثيرة، وكلما ازدادوا غنى كلما طلبوا المزيد، وأحس الشعب أن رجل الدين المثالي الذي كان صورة من نبيهم زردشت، قد انقلب رجلا يحب المال حبًا جمًا، ولا يعني بغير ذلك.

وكان نظام الطبقات قد أرهق طبقة الحراثين، وأرهق الأذكياء من أبناء الفقراء الذين لا يجدون المجال ميسرًا لهم، وفسد الحكام كما فسد رجال الدين. وضن الغنى على الفقير، والإحسان الذي عده زردشت أول الفضائل وطلب إلى تلاميذه أن يبثوا له الدعوة بين الأغنياء، هذه الفضيلة

التي عمل بها أيام تمسك الدولة بدين زردشت قد زالت من نفوس الحكام وثراة رجال الدين. وتساءل الناس عن قول زردشت:

"من يعاون الفقير البائس يساهم في إقامة دولة أهورامزدا"

وذكروا أنه سأل ربه عن الوسيلة لاكتساب صداقته فقال: «يا زردشت تكسب صداقتي بمساعدة الفقراء الشرفاء أصحاب الروح الأمين."

وسادت الأنانية بين الناس، وانصرف كل إلى شأنه لا يعبأ بغيره؛ وجرى على لسان الأذكياء المحرومين قول زردشت:

"إن الذي لا يجود بماله مع ما أوتى من وفرة الرزق سوف يساق إلى هاوية الفقر سوقًا، ولتنصب المصائب انصبابًا على الأشحاء الذين لا يتصدقون."

كان ذلك إبان قحط ألم بإيران، ومات الناس جوعًا، ومن الأغنياء من كان له غلات وافرة، فثار الشعب، ومن بعد ثورته تزعزع إيمانه بحكامه، وأحس الشعب أن دين زردشت لا تحميه الدولة، وأن الدولة قامت على أساسه منذ البداية، فهي منهارة لا محالة بعد تخليها عن هذا الأساس.

واستطاع كسرى أنو شروان أن يعيد الثقة إلى النفوس فترة من الزمان، ولكنه أخطأ حين تمسك في عنف بنظام الطبقات. ورغم ما حمد له الإيرانيون ما هيأ لهم من إصلاح في الداخل ومن غلبة على الروم في

الخارج، ورغم ما أحاط به نفسه من الحكماء، وما نقل من علوم الشرق والغرب، وما أفاض على عصره من مظاهر التقدم والنهضة، فإنه أثار حقد الشعب. فقد أحنق الناس عليه لأن كاتبًا سأله وهو يصلح نظام الضرائب فلم يرد على سؤاله وأمر بقتله قتلة عنيفة لما اجترأ عليه من سؤال الملك وهو كاتب. ولم يكد يمضي على هذا الحادث سنوات حتى استقرض خفافًا (إسكافا) مالا ليعينه في حرب، فلما طمع الخفاف في أن يرفع ابنه من طبقة الحراثين إلى طبقة الكتاب، أبى عليه ذلك ورد له ماله، وقال إن نظام الكون يفسد إذا تغير نظام الطبقات.

وانصرف رجال الدين عن رسالتهم، وتدخلوا في شئون الفرد واستغلوا ضعف الضعفاء بدلًا من تقويم هذا الضعف، وتسامع الناس بالمثل العليا التي ينادي بها الناس في الجزيرة العربية، فآمنوا بهذه المثل، ووجدوا فيها المنقذ مما هم فيه. ولم تكد الدعوة الإسلامية تصل إلى بلادهم حتى أقبلوا عليها إقبالا ودخلوا في الإسلام.

أما الذين تمسكوا بدينهم، دين زردشت، فقد عاملهم أمير المؤمنين عمر، معاملة أهل الكتاب. ولكنهم كانوا قلة قليلة، ومنهم من آثر الهجرة إلى الهند. ولكن زوال الدولة التي كانت تعمل أساسًا بتعاليم زردشت العملية قد أفقد هذا الدين مزية التطبيق، ولذلك لم يبق من آثاره كثير، وقد ظل مجهولا عند الكتاب المسلمين، ولم تظهر حقيقته إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين اتجهت أنظار الغربيين إلى الشرق. فظهر ما بقي من الأوستا، وما بقي من كتب التفسير لها، وجمع ما للبرسيين من

تقاليد، وترجم هذا كله إلى اللغات الأوربية، وأصبح من أهم المواضيع التي يدرسها طالب الدراسات الإيرانية.

وبعد انتشار الإسلام في إيران، اختفي مذهب زردشت، وبقي في قلوب القلة التي حافظت عليه والتي تعيش اليوم في يزد. ولكن المذاهب الفارسية التي ظهرت بعد الإسلام، والتي كان لها أثر في بعض الفرق الإسلامية، هي المذاهب التي كانت تحارب دين زردشت أيام الساسانيين، والتي اضطهد أصحابها وشتتوا في خارج إيران، أو ظلوا مختفين في داخلها. فلما جاء الإسلام أسلموا، ولكن لم يكد يستقر الأمر لهم، بعد أن نالوا في ظل الإسلام حريتهم، حتى نادوا بمبادئهم التي حاربهم الزردشتيون من أجلها.

فالزنادقة الذين ظهروا أيام العباسيين هم من المانوية، أتباع ماني، الذي حاول أن يعدل دين زردشت وأن يدخل عليه بعض مبادئ الدين المسيحي، مستعينًا بتأويل شرح الأوستا المعروف بالزند، معللا اجتهاده بأنه منصب على الشرح دون المتن. وقد سموا بالزنادقة أيام الساسانيين لهذا السبب.

وكذلك الحال في الفرق الإسلامية التي أخذت عن المزدكية.

أما دين زردشت نفسه فقد ظل محفوظًا عند القلة التي تمسكت به، ليمثل دائمًا دينًا من أعظم الديانات العملية التي ظهرت في الشرق القديم.

كونفوشيوس

د.سهير القلماوي

٥٥١ ق. م. إلى ٤٧٨ ق. م.

في منتصف القرن السادس قبل الميلاد كانت الصين العظيمة تعاني فترة من فترات الاضمحلال والتحلل في تاريخها الطويل. فنظام الحكم الإقطاعي، الذي عرفته الصين من قرون سحيقة في القدم، كان آخذًا في الفساد المنذر بأسوأ العواقب. وإذا بذور الانحلال لا تخفي على أعين الأسرة الحاكمة أسرة «تشاو». لقد كانت الصين تحكم إقطاعًا منذ عرف شعبها الحكم. ولكن الإمبراطور الأكبر «وولانج» كان قد نظم هذا النظام بشكل جديد مما بعث فيه الحياة، وفتح باب الأمل في حكم مستقر إلى حين. ذلك أنه قسم مقاطعات الصين بين أقاربه الذين أعانوه على الحكم؛ فإذا الصين كلها أسرة واحدة وعلى رأسها عميد هذه الأسرة.

ولكن روابط القرابة على مر السنين تنفصم عراها وأواصر القربى بين أبناء العم يعدو عليها الطمع والجشع؛ وإذا هذه الأسرة التي نعمت الصين في ظلها بالحكم الأمثل– حكم الإقطاع في ظل نظام الأسرة المقدس عند أهل الصين منذ وجدت لها مدينة– يشن أعضاؤه الحرب بعضهم على البعض ويحاول كل منهم أن يستقل بما تحت يده من أرض، بل يحاول أن يعدو على ما في أيدي غيره من الأهل والأقرباء.

ووسط هذه الحروب، حروب المقاطعات بعضها على البعض تخلخلت القيم، واندك صرح الأخلاق وإذا الأمة الصينية المجيدة كلها نهب الطمع والجشع وحب الذات.

وتلفتت الأرض إلى السماء تنتظر نبيًا أو مصلحًا؛ ولكن السماء لم تجب.

وتلفتت الأرض من حولها حيرى ولم يكن ثمت من يعينها في هذه الحيرة.

وعادت الأرض– أرض الصين العتيقة– تبحث في نفسها عن المنقذ فإذا نفسها تجيب: لا من السماء ولا من الهواء، ولكن مني أنا! أنا الأرض سيخرج من يصلح الحال. وسيكون ابني المصلح آدميًا، لا ملاكًا ولا نبيًا وإنما رجلا إنسانًا كسائر الناس وسيحاول أن يصلح بقوى البشر وعقلهم وروحهم لا بقوى من السماء ولا بتأييد الخوارق أو الملائكة.

وفي مقاطعة «لو» التي، كانت قد وصلت إلى حال من الاضمحلال تنذر بالويل والثبور، ولد الطفل كونفوشيوس من قبيلة كونج لأب مسن لم يستطع أن يعيش مع ولده إلا بمقدار ما يصل به إلى الثالثة من عمره. ولم تكن قبيلة كونج تعلم أن هذا الطفل ابن حاكم منطقة تساو– هو الذي سيخلد اسم القبيلة كلها على مدى السنين، وأن الناس سيرددون اسم القبيلة بسببه عشرات القرون بعد أن تنتهي حياته وحياتهم. إن اسم كونفوشيوس ما هو في الواقع إلا تركيب اسم القبيلة كونج مع كلمة

«فوتسي» أي الفيلسوف أو السيد. وبذلك يكون اسم كونفوشيوس عبارة عن مركب من اسم القبيلة واللفظ الدال على السيد أو الفيلسوف أي فيلسوف كونج.

ولم يترك الأب طفله صغير السن فحسب ولكنه تركه في أزمة مالية أيضًا ضاعفت من ضعفه للقاء هذا العالم الصاخب من حوله. ولما كان لابد للصغير من أن يعمل ليكسب قوت يومه منذ سن مبكرة، قبل أن تظهر شخصيته أو تتحدد ملكاته، فإنه تمرس في مختلف المهن والحرف وعمل من الأعمال ما يعد مجموعة فريدة لا يمكن أن تتلاقى مفرداتها إلا عند نقطة واحدة، ليست منها، واسمها الحاجة إلى ما يسد الرمق.

ويحدثنا الحكم نفسه أنه منذ سن مبكرة جدًا هوى المعارف وانكب على القراءة والعلم. ولكن أنى له الفراغ اللازم لمثل هذه الهواية. إنه في الصين وفي عصر من عصور الاضمحلال المنذر باضمحلال أشد وأقوى. فإذا كانت الحروب في زمانه كثيرة فإنها ازدادت بعد مماته حتى لتعرف الفترة التالية في تاريخ الصين بعصر الدول المتحاربة. ولابد له من السعي والعمل وإلا ضاعت ذرات جسده في ذرات المواد من حوله. وهو ليس في الصين المضطربة فحسب ولكنه في الصين ذات التقاليد العريقة، التي تحتم الزواج في سن مبكرة فإذا هو في سن التاسعة عشرة مسؤولا عن إطعام فمين لا فم واحد؛ وبعد عام واحد أصبحت الأفواه الجائعة ثلاثة. وبعد عامين آخرين أصبحت خمسة. أنعجب بعد ذلك أن يتقلب رب هذه الأسرة الفقيرة بين مختلف المهن والحرف؛ وأن ينسي هوايته أو يجعلها في المقام

الثاني ولو إلى حين. أنعجب بعد ذلك أن يعمل كونفوشيوس في شبابه خازن بضاعة وملاحظ بساتين وراعي غنم؟

ولكن الحكيم يحس أن لديه شيئًا يريد أن يعلمه الناس. شيئًا ينبعث من هذا القليل الذي قرأ في كتب القدامى. ويقويه هذا الشر المعاصر الذي يراه في أهل زمانه، شيئًا ينظم حياة الإنسان الخاصة والعامة. إن وحيًا من السماء لم ينزل عليه؛ وكل ما عنده ينبع من الأرض ويرد إليها. كله من قلبه وقد احتك بحكمة القدماء وألهب بفظائع العصر. وفي الثانية والعشرين من عمره يفتتح مدرسته الأولى ويستقبل تلاميذه الأول. إنه لا يريد أن يعلم المعارف والعلوم في هذه المدرسة وإنما هو يريد أن ينظم الأخلاق والعلاقات بين الناس بعضهم البعض؛ وعلى رأس هذه العلاقات وفي المقام الأول منها علاقة الحاكم الأرضي بمن يحكم من شعبه، لا علاقة العبد بخالقه وإنمًا علاقة الموظف بالملك والشعب بالموظف. ثم تأتي العلاقات الأخرى علاقة الأب بأسرته وعلاقة الأخ بأخيه وأخيرًا علاقة الصديق بصديقه.

وكانت هذه المدرسة طريفة في كل شيء. كانت أجور التعليم فيها عينيات من الهدايا تقدم للمعلم بل سيد معلمي الصين. يقبلها بالترحاب لحاجته إليها، بل يقبلها وإن زادت على حاجته. إنه ابن الأرض، إنه إنسان فلماذا لا يأخذ ما يعطي له. ولكنه ممتاز فهو لا يرد تلميذًا مهما قلت عطاياه أو هداياه. بل مهما كانت تافهة. وهو لا يقبل كسولا غبيا مهما تكن عطاياه ثمينة، بل مهما بلغت حاجة المعلم إليها. إنه معلم لا يبخل

يعلمه على فقير مادام أهلا لأن يتعلم ولكنه يضن بعلمه على الثرى ما دام غير أهل لأن يحمل رسالة العلم المقدسة.

وهكذا ظل كونفوشيوس في هذه المدرسة الفذة مدرسة العلم لمن يستحق.

وفي عام ٥١٧ قبل الميلاد انضم إلى تلاميذه أميران من أمراء البيت المالك في مقاطعة «لو»، بعد أن زال عن عميد أسرتهم السلطان؛ ولما رحلا اصطحبا معهما إلى العاصمة سيد المعلمين. وكانت فرصة لأن يزور كونفوشيوس مكتبات العاصمة، ولأن ينصت إلى الفرقة الملكية للموسيقى؛ وهناك التقى بالفيلسوف الأكبر– فيلسوف الصين ومؤسس دينها الثاني «لاوتسي». والعجيب أن الفيلسوف الحالم المتسامي لم يقدر الحكيم العظيم حق قدره، بينما نظر الحكيم العملي إلى الفيلسوف الحالم بعين كلها تقدير واحترام.

ورحل كونفوشيوس وراء حاكم مقاطعة «لو» بعد أن ثار عليه وزراؤه وطردوه من العاصمة إلى منطقة «تسي». ذلك أنه لم يطق النظر إلى بلد لا تحترم فيها الرعية حاكمها العادل. وفي الطريق رأى امرأة تنوح على قبر؛ فسألها عن حالها فقالت: إن هذا القبر يضم رفات زوجي وأبيه وابني. فتعجب الحكيم وسألها كيف ماتوا جميعًا؟ قالت: عدا على كل منهم نمر من نمور الغاب. فازداد عجب الحكم وسألها ما مقامها بأرض مشؤومة تعدو فيها النمور على ساكنيها؟ فقالت: إني أقيم بها لأن حاكمها لا يضطهد الناس. فالتفت سيد المعلمين إلى تلاميذه، وكان يسير دائمًا في

حشد منهم أخذ يتزايد عدده حتى فاق الثلاثة آلاف عدًا، وقال: «أرأيتم يا أبنائي. اذكروا دائمًا أن الحكومة الظالمة أشد فتكًا من النمور وأقسى».

ولكن مقام الحكيم لم يطب في «تسي» وأحرج فيها الحاكم أيما إحراج. كيف يقابل العظيم وليس له وظيفة في الدولة تملي الاحترام؟ ولكن كيف يعامله كسائر الناس وهو سيد المعلمين الفارضي على الناس كلهم احترامه وتبجيله؟ وحاول الحاكم أن يرتب له مرتبًا يتفق ومقامه ولكنه رفض أن يأخذ من حاكم شيئًا ما دام الحاكم لا يتبع نصائحه. وأحس الحكيم بالحرج من حوله. وكانت الحاشية لا تنظر إليه بعين الرضى فلقد حفظت السجلات لنا وصفًا له على لسان أحد أفراد حاشية حاكم «تسي» يقول عنه فيه «كان الحكيم لا يخضع لما هو كائن، مملوءًا بالشذوذ، مغرورًا في نفسه». لم يكن إذن بد من أن يعود إلى «لو».

ولخمس عشرة سنة عكف الحكيم على العلم والقراءة والتدريس. ولعل هذه الفترة هي التي أتاحت له أن يطلع على كتب الصين المقدسة القديمة ليصدرها في شكل جديد، حاملة طابعه الشخصي بقدر ما حملت روح الصين العتيق على حقيقته. إنها هذه الأعوام التي جعلت من الحكيم الممثل الأعظم لروح الصين وحياتها. لقد صهرت بوتقة الإطلاع على تراث الصين الخلقي والتاريخي نفس الحكيم فإذا هي وقد حلت فيها روح أمة مجيدة بأسرها حلولًا قويًا تشع نورها القوى الجديد. وإذا الصين تجد نفسها في كل ما يقول كونفوشيوس. إن الرجل لم يقدر حق قدره في حياته ولكن الأحداث التي تلت حياته أخذت في كل عام تمعن في الإشارة إليه

والإشادة بفضله. فإذا هو بعد أعوام طويلة لا يكاد يمثل نفسه في شيء وإنما هو يمثل الصين بكل قوتها وبكل ما في روحها من بساطة ولصوق بالأرض.

إن الحكيم لم يعلم الأخلاق للصينيين على نحو جديد. وإنما هو علمهم إياها على طريقة القدماء المقدسين في عقائد الصين العريقة. وهو لا يعلمهم أسس الخلق الكريم بالطريقة التي تعلم بها الأديان من تدعوهم إليها وإنما بطريقته الخاصة التي تلائم الشعب الصيني اللاصق أبدًا بالأرض مهما صعد نحو السماء. إن كونفوشيوس لا يرغب ولا يرهب ولا محل في دينه لثواب أو عقاب لا ولا لجنة أو لنار؛ لا على الأرض ولا في السماء لا عاجلا ولا آجلا. ماذا إذن؟ الفضيلة للفضيلة كما يقول المحدثون؟ كلا!

ولا هذا. وإنما الفضيلة لنتائجها المباشرة؛ إنها السبيل الوحيد للأمن والحياة الهانئة ومن غير الفضيلة لا تستقيم حياة.

وفجأة يتألق نجم الحكيم بعد هذه الأعوام الطويلة التي قضاها في تعليم التلاميذ ووعظ المريدين. ولم يكن طوال هذه الأعوام بعيدًا عن الحياة. وإنما كان مغمورًا فيها متدخلا في شؤونها يحاول ما استطاع أن يوفق بين الأحزاب المتناحرة في الدولة فلا يفلح. وأخيرًا عينه الحاكم في وظيفة. وكان الحاكم أخًا صغيرًا لهذا الحاكم المطرود إلى «تسي» والذي لم يطق من أجله إلا الفرار من بلد ثار على حاكمه العادل. وأما المنصب الذي عين فيه فكان قاضي مدينة «تشونج تو».

ولأول مرة، والحكيم في الثانية والخمسين من عمره، يجد الفرصة ليطبق تعاليمه ونصائحه. لأول مرة يري الميدان الذي يمكن أن يحيي فيه سنة القدماء كما تمثلها؛ فإذا المدينة جنة على الأرض أو هي «إيوثوبيا» قبل أن تلوح في خيال التاريخ. شاع العدل وعم الأمن بل، وهذا هو الأعجب، تغيرت أحوال الناس وأخلاقهم. «إن الحاكم كالريح إذا هب لابد أن تميل الرعية كما تميل الحشائش– في الاتجاه الذي يسيرها نحوه.» أيمكن أن يرى مصداقًا أعظم لحكمته. إنه حاكم مدينة لا يلبث فيها أقل من عام فإذا الرعية كلها تميل إلى نحو ما أمالها نحوه. ونظر الحاكم الأمير الصغير إلى قاضيه وولاه وزارة العدل على مقاطعته كلها. ولم يكن يسمى وزير العدل وإنما كان يسمى وزير الجرائم. وما كاد كونفوشيوس يقلد منصب وزير الجرائم حتى اختفت الجرائم بشتى أنواعها من المقاطعة كلها. وشجع ذلك الأمير على أن يولى تلميذين من تلاميذه مناصب رئيسية في بعض أطراف مملكته. وتعاون الأستاذ وتلميذاه لا على إشاعة العدل وتثبيت قدم الفضيلة فحسب وإنما على توطيد سلطان الحاكم الذي ولاهم.

وقليلا قليلا أصبح الحاكم خطرًا على كل طامع حوله. وما كاد كونفوشيوس يتم السنة الرابعة في بلاط حاكم «لو» حتى كان حاكم «تسي» قد تفتق ذهنه عن الحيلة التي يمكن أن يغضب بها الحكيم ليترك بلاط منافسه ويخلو له هو الجو لأن يحكم منطقته مطمئنًا على نفسه آمنًا من عدوان كونفوشيوس ومن يثبت له الأمر. وكانت الحيلة غاية في

البساطة هي توريط الحاكم الأمير الشاب فيما لا يمكن أن يرضي عنه الحكيم العظيم.

وأرسل حاكم تسي أحابيله– فرقة من الجميلات المتقنات للغناء والموسيقى والرقص ومجموعة من الخيول النادرة. وما كادت الهدية تصل وما كاد الأمير الشاب يفرغ لها حتى لمح الحكيم نهاية الفترة الذهبية.

إن مقاطعة «لو» التي عرفت مدى سنوات أربع معنى الحكم العادل الفاضل قد كفرت بالنعمة. إن الجريمة التي اختبأت في أوكارها تطل لتتحين الفرص؛ والولاء الذي غرق فيه الشعب راضيًا عن أميره المحبوب قد أخذت صورًا جديدة من حياة الأمير الشاب تزلزل أركانه. بل إن مجد «لو» الحربي وما كان ينتظرها من توسع قد أخذ يحس رعشة التقلص وألم الانكماش. إن مقاطعة «لو» قد اتخمت بالفضيلة فلن يقدر لها كما كان يتطلع سيد حكماء الصين أن تكون نقطة الدائرة التي تشع العدل والأمن والفضيلة على العالم أجمع. إن التخمة بدل أن تنشر الدفء في الجسد وتشع الحياة في سائر أعضاء الجسم تصيب الجهاز كله بأزمة طاحنة وألم لا يريم.

ونظر الحكيم حوله فلم يكن هناك نور ولا أمل. وانتهز فرصة من الفرص التافهة واعتزل خدمة الأمير الشاب. ثم انتظر توبة الأمير ولكن الأمير لم يلتفت إليه.

وأخذ كونفوشيوس في كتابة أروع صفحات حياته بعرق الجبين وبالجوع وبالضياع وبالألم. أخذ كونفوشيوس شيخًا في السادسة والخمسين يجوب الأرض هائمًا على وجهه ومن حوله تلاميذه الذين لم يفارقوه لحظة من لحظات حياته الطويلة. لقد كانوا تلاميذ لا كتلاميذ اليوم، لقد كانوا أبناء مخلصين ينامون حيث ينام أستاذهم، ويأكلون مما يأكل. ومنهم من ترك البيت والأهل والولد ليسافر معه حيث يسافر. وجاب كونفوشيوس وهام في مقاطعات الصين الشاسعة. والأرض قاسية والسماء لا تحنو عليه فلم يكن يتطلع إليها. وإلى هذه الفترة تنسب الكثرة من أقواله التي وصلت إلينا في صيغة سؤال من ملك أو تلميذ أو حاكم أو أمير أو رجل من الشارع والجواب أبدًا من روح الصين التي حلت في جسد سيد المعلمين.

وإن يكن حلم المدينة الفاضلة قد أصيب بضربة قاضية إزاء تصرف أمير «لوط فإنه ما لبث أن صحا في قلب الحكيم مرة أخرى قويًا متألقًا مملوءًا بالأمل حتى إنه ليقول «لو أتبع حاكم نصائحي عامًا واحدًا لوصلت إلى شيء عظيم، ولو أتيح لي أن أستمر ثلاث سنوات ناصحًا لهذا الأمير لوصلت إلى آمالي في العالم كله."

واستمر يجوب الآفاق ويذرع بلاد الله الواسعة العريضة؛ فمن يدري لعل أميرًا ينصت إليه أو حاكمًا يسترشد به، ولكن جهوده كانت تذهب هباء؛ وتعب ثلاثة عشر عامًا تذروه الرياح. إن الحكام الذين صادفهم جميعًا كانوا مستعدين لكل شيء إلا أن ينصتوا إليه. لقد أكرموه واحترموه

وقدموا إليه كل ما يمكن من إجلال وإكرام، ولكنهم ظلوا في ضلالهم يعمهون. وظل هو يلاقي الأمل بمدخل بلد ليودعه بمخرجها بعد فترة وجيزة.

وأخيرًا وقد بلغ التاسعة والستين عاد إلى مقاطعة «لو» مشهد الأمل وقد تحقق في يوم مضى من الزمان. وكان تلميذًا من تلاميذه قد وصل إلى أن يكون قائد الجيش. وكان الأمير الشاب قد مات وخلفه ابن له شابًا صغيرًا.

وكان الابن معجبًا بقائد جيشه فسأله يومًا من أين له ما يتقن من فنون الحرب فقال من أستاذي. وكان أن قدم الأستاذ إلى الحاكم ولاحت الفرصة الذهبية والتلاميذ من حوله شاهقون متعلقون بالأمل الذي لاح. ولكن...

شيخ على باب السبعين ماذا يستطيع؟ إن قلبه قلب إنسان وجسده جسد صيني من على أرض الصين. وليس بينه وبين السماء أو الخوارق أسباب.

نعم ماذا يستطيع شيخ في السبعين؟ ورفض كونفوشيوس أن يتولى منصبًا وعكف في كنف الأمير على كتبه. على كتب الصين الخمسة القديمة التي اعتبرها لباب التراث الصيني المقدس. وأخذ يكمل إعدادها لإخراج جديد. إخراج لكونفوشيوس فيه الفضل أي فضل.

وفي السبعين مات ابن له فبكاه. وسخط على حرب القدر له في عزيزه.

وفي الحادية والسبعين مات تلميذ مريد حبيب فبكاه بكاء أخرجه عن الوقار الواجب لمن يحمل عقله وقلبه. وإذا هو يرى في موت التلميذ سيفًا آخر من سيوف السماء المسلطة على قلبه. وفي الثانية والسبعين مات تلميذ ثان حبيب إلى قلبه فلم يحتمل المصيبة وصاح «انظروا كيف تحطمني السماء».

وأثر حلم مزعج نادي أتباعه ومريديه وقال لهم: «إن حياتي تؤذن بمغيب» ثم ناح وهو يقول «أما من حاكم ذكي يدعوني لأرشده؟ وهذه هي أيامي وقد آذنت بانتهاء.» ولزم فراشه سبعة أيام مات على أثرها دون أن تبدو عليه أية إشارة أنه يستعد لشيء سيلقاه في السماء. بل إن أحدًا لم يسمع من فمه صلاة.

واحتفل المريدون بجنازة معلمهم أيما احتفال. ومكثوا مقيمين حول قبره في أكواخ ثلاثة أعوام يؤدون له كل يوم ما يجب نحوه من مراسيم يقيمها الأبناء عادة لآبائهم حسب التقاليد الصينية العريقة. ولما رحل المريدون ظل ثالث ثلاثة أحبهم الحكيم ثلاثة أعوام أخرى مقيما حول القبر العزيز.

وطوي الصين نبأ موت الحكيم فجاء القوم إلى قبره من أقصى أقطارها يؤدون فروض الولاء والتقديس ويقيمون المراسيم التي تفرضها

التقاليد المقدسة نحو الموتى من الآباء والأجداد. وإذا هذا القبر إلى اليوم محجًا ومزارًا لعباد التعاليم التي جاء بها صاحبه. وهو يقع خارج أسوار مقبرة منطقة «كونج» مسقط رأسه. وقد بنوا حوله بوابة عظيمة وممرًا فخمًا تعلوه أشجار السرو على الجانبين. وعلى القبر لوحة من عهد أسرة «سنج» عليها لقبه الذي خلعته عليه ملوك تلك الأسرة. «هذا قبر أحكم معلمي الصين القديمة الملك الكامل العالم بكل شيء».

وأخذ الزمان يلهث في سيره يطوي فيما يطوي ملوكًا وأمراء وأناسي، وحان حين أسرة «تشاو» بعد أكثر من قرنين وربع من موت الحكيم. وقام على بلاد الصين «تسائن» الجبار. وهوت عروش أمام ومضات سيفه وانمحت أسر وخضعت ولايات. ولكن الجبار وقف أمام الشعب– الشعب الذي آمن بكونفوشيوس– ولم يستطع شيئًا. لقد أحرق كتب سيد المعلمين فلم تنج من نيرانه العاتية إلا ورقات، ودفن المريدين أحياء ما داموا ثابتين على ولائهم للحكيم. «إن الجبابرة يستطيعون أن يهزموا الجيوش ولكنهم لا يستطيعون أن يهزموا الشعوب «هكذا قال كونفوشيوسي. ووقف الجبار لاهثًا من هول المعركة.

ترى من أين جاء للحكيم كل هذا الإجلال ولم تكن الدائرة المتأثرة به إلا ضيقة كل الضيق في حياته. ما سر انتشار هذه التعاليم وما السبب في تعلق الناس بها هذا التعلق الثابت المكين إلى حد أن يضحوا بأرواحهم ولا يخونون العقيدة ولو باللسان.

إن سر هذا لم يكن من المستطاع أن يظهر في مثل هذا الزمان. إن الأحداث تحدث وعلى الناس بعد حدوثها، بسنين أو أجيال أو حتى قرون، أن يفسروا ما طاب لهم أن يفسروا. ولئن كان كونفوشيوس قد عمل في سبيل تمكين الشعب الصيني من أن يقدر رسالته ويؤمن بها فلقد عمل هذا الجبار باضطهاده أضعاف ما عمله كونفوشيوس في سبيل ذلك. لقد تنبه الشعب على سياط الجبار إلى حقيقة الظلم وإلى بشاعة الحياة في كنف الظلم والعدوان، ووجدوا في تعاليم كونفوشيوس الجنة التي إليها يتوقون. لو عرف الحاكم حدوده وواجبه، وعرفت الرعية حدودها وواجبها. كما لو عرف الأب حدوده وواجبه، وعرفت أسرته التي يعولها ويرعاها حدودها وواجبها، لانتظمت الحياة ولعمت السعادة، ولساد الأمن وشاعت الطمأنينة.

وإن يكن عهد الجبار لم يطل فلم يكن ذلك لكلال من الاضطهاد أو ملل من الظلم وإنما كان ذلك من مقاومة الشعب بروح كونفوشيوس لهذا الاضطهاد.

وطوي التاريخ صفحة «تسائن» وفتح صفحة أسرة «هان». وفطن عميدها ومؤسسها أن سنده الأقوى هو في إتباع تعاليم الحكيم وفي تملق الشعب بإجلال سيد المعلمين وتقديم كل مظاهر التكريم لذكراه.

وفي عهد هذه الأسرة– أسرة هان– كتب لنا حفيده أول كتاب ضم أكبر مجموعة من أقوال المعلم الأكبر «عقيدة الطبقة الدنيا». وكتب أهم

مريديه وأعمقهم علمًا كتاب «العلم الأكبر» الذي ضم بدوره طائفة ممتازة من أقواله أيضًا.

أما الكتابان الآخران اللذان يكملان مجموعة الكتب الأربعة التي يستقى المؤرخون منها كل ما عرف التاريخ عن حياة سيد المعلمين وأقواله فهما كتاب السجل أو «محاورات ومساجلات»، وهو في صورة مقطوعات مفرقة من أقواله وأخباره وكتاب «منسيوس» الذي يشبه السجل كل الشبه.

أما ما يكمل هذه الكتب الأربعة من مراجع عن حياة الحكيم الأعظم فهي مجموعة الكتب التي تكون تراث الصين القديمة التي نشرها أو عدلها أو قدم لها. وهي خمسة كتب تعرف بالخمسة المقدسة، أولها كتاب «شوكنج» وهو مجموعة مستندات تاريخية وكتاب «من الشعر القديم».

وثالث عن «تغير الفصول وتعليل مظاهر الطبيعة» ورابع عن «مراسيم العبادة والتقاليد» والخامس وهو تاريخ مقاطعة «لو» أو «حوليات لو» لأنه يؤرخ أحداث المنطقة عامًا بعام.

إن خير ما يمثل تعاليم الحكيم هو قول نبينا عليه الصلاة والسلام «الدين المعاملة». وهو يصوغ هذه الحقيقة في قوله «لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به». وجدير بالملاحظة أنه لا يقول عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به. فهو عملي متواضع فيما يفرض على الناس من فروض.

إنه يريد الكف عن الأذى والكف عن أذى الغير في نظره فضيلة كفضيلة تقديم الخير.

ولم يكن كونفوشيوس كما أسلفنا نبيًا ولم يقل إنه ينقل شيئًا للناس أو يحمل إليهم رسالة. وإنما هو منشئ مسئول. لذلك كثرت أسئلة التلاميذ له عن سلوكه. وحاسبوه على حركاته وسكناته وسألوه الحكمة في كل ما قد أتى به من عمل. وكان يعد نفسه ملزمًا مسئولا في كل ما يفعل. والعجيب أن الكتب القديمة تذكر الكائن الأعظم أو الخالق؛ ولكن كتب كونفوشيوس التي نقلها عنه تلاميذه تستبدل كلمة الخالق بكلمة شائعة عائمة هي السماء. وهي كثيرًا ما تردد قوله «إذا كنتم لا تعرفون الحياة فكيف تريدون أن تعرفوا الموت؟» لقد رأى الإنسان في إطار من المجتمع حوله ولم يكن من السهل عليه أن يراه منفصلا عن هذا المجتمع الذي يعيش فيه. وكانت تعاليمه كلها ترتكز على حفظ العلاقات المناسبة بين الإنسان وبين من يعايشهم على هذه الأرض. فيؤدي للملك حقه وللآباء حقهم وللأبناء والإخوان والأصدقاء أيضًا حقوقهم. وكما أن الأب إذا سار سيرة حسنة مع أبنائه صلحت أمور الأسرة كلها؛ فكذلك الحاكم إذا سار مع موظفيه سيرة حسنة. فإن الأمة كلها تطمئن وتزدهر. وكانت الصين معدة لأن تقبل نظريته في الحكم المثالي لأنها كانت تعرف من تقاليدها القديمة ومعتقداتها الضاربة في القدم السحيق كيف تمجد الآباء والأجداد وتقدس ذكراهم بل تعبدهم.

إن أقوال كونفوشيوس في الملك الصالح تعد أقدم ما نصح به فيلسوف حاكمًا. وإن الآداب كلها في مختلف اللغات لتزخر بصورة الحكيم أو الفيلسوف إلى جانب الملك ينصح ويعلم أصول الحكم. ولكن الطريف في تعاليم كونفوشيوس أنها بسيطة عملية لا رمز فيها ولا صورة أدبية بل ولا فلسفة. يقول مثلا «إن الشعب يمكن أن يرغم على أن يسير سيرة معينة ولكنه لا يمكن أن يرغم على الإيمان بالسبب في ذلك.» وهو ينصح الشعب قائلا: «إذا عمت الفوضى فإنه يجدر بالعاقل أن يتوارى، ولكن إذا علت كلمة القانون وساد النظام فمن الواجب على العاقل أن يظهر. وفي الدولة التي تحكم بالأسس السليمة يكون الفقر والتخلف في المنزلة عارًا ولكن في الدولة التي تحكم حكمًا جائرًا فإن الغنى والرفعة هما العار."

وكثيرًا ما يحدث الحكيم تلاميذه عن الرجل الأفضل والإنسان الأحكم أو الممتاز فيقول: «إن الرجل الممتاز يبحث عن كل شيء يريده في نفسه، أما الحقير فإنه يبحث عن كل ما يريد عند الناس.» وسئل مرة عن خير الناس فقال سائله: «وما رأيك في رجل يحبه جيرانه جميعًا؟» فأجاب سيد المعلمين «قد لا نوافق عليه أو نفضله بسبب ذلك بالذات» فقال السائل: «وما رأيك إذن فيمن أجمع الجيران على كرهه؟» فأجاب «قد لا نخرج من هذا بالذات بأنه شرير. ذلك أن الأفضل من الرجلين هو ذاك الرجل الذي يحبه الخيرون من جيرانه ويكرهه الأشرار منهم."

وسئل في الرجل الأفضل فقال: «إن الرجل الأفضل عسير على الناس أن يرضوه ولكن من السهل عليه أن يخدموه. ذلك أنك إذا حاولت

أن ترضيه بشيء لا يتفق والحق فإنه لا يرضى ولكنه في استخدام الناي يستطيع أن يميز بينهم ويوفق بين كفاءاتهم وحاجاته، أما الرجل الحقير فمن السهل عليك أن ترضيه. ولكن من العسير جدًا أن يخدم. ذلك أنه قد يرضي بما ليس متفقًا والحق ولكنه في استخدام الناس يطلب إليهم أن يكونوا كفؤًا لأي عمل يريد."

ويقول عن طبيعة البشر «إن أعلى طبقات الحكماء وأدنى طبقات الأغبياء هم الذين لا يتغيرون».

ويقول عن الأخطاء ودلالاتها. «إن ملاحظة المرء فيما يخطئ فيه تدل دلالة واضحة على الطبقة التي ينتمي إليها ولقد تدل أخطاء الرجل على أنه من الفضلاء.» ثم يقول «إن الفاضل من فخم مزايا الناس وخفف الوطأة في الحمل على أغلاطهم. أما الحقير فإنه من يفعل عكس ذلك» ويقول: «ما سرت مع رجلين إلا كان كل منهما لي معلمًا. ذلك أني أبحث عن مزايا أحدهما فأحاول أن أقلدها وأبحث عن عيوب الثاني فأحاول أن أتجنبها."

وكثيرًا ما كان يقول عن الأمراء والحكام الذين لم تكن نصيحته تبلغ قلوبهم «إن الحفر على الخشب العفن مستحيل، وطلاء الجدران المصنوعة من الطين عبث وضياع وقت».

وكثيرًا ما تصور أقواله حقيقة تعاليمه كأن يقول عن نفسه «إن من الرجال من يسلك الطريق القويم دون أن يعرف لماذا هو يفعل ذلك ولا كيف؛ أما أنا فإني أسمع كثيرًا وأتنخل الطيب مما أسمع ثم أسير على هديه.

وبما أني رأيت كثيرًا في دنياي فإني أذكر كل هذا الذي رأيت وما أذكره يهديني. وهذا في الحقيقة سلوك حكماء الطبقة الثانية لا الحكماء من الطبقة الأولى.» أو يقول: «إني لم أولد عالمًا أو حكيما، وما أنا إلا شغوف بتراث القدامى عكوف على درسه حريص على تمثله."

ولم يظلم رجل في دراسة الغربيين له قدر ما ظلم كوفنوشيوس فلقد خلعوه من إطاره– الصين– وحاولوا أن يجدوا له فلسفة أو دينًا فلم يجدوا، وحاولوا أن يضعوه ضمن المصلحين أو الزاهدين أو الحالمين فلم يجدوا له مكانًا بين هؤلاء جميعًا. حتى عرفوا اللغة الصينية وحتى عاشوا في الصين وعاشروا أهلها فاستطاعوا – وما ذاك إلا في هذا القرن– أن يفهموا سيد المعلمين وتعاليمه في إطارها الحقيقي وفي جوها الذي تتنفس فيه. عندئذ لم يعجبوا من أن الملايين تتزايد في تقديس ذكراه وتتبع تعاليمه في حياتها العامة والخاصة، وإنما عجبوا من جهلهم به وأخذوا يكملون النقص في علمهم بحقيقة حكمه ودلالاتها، وما زالوا إلى اليوم يفعلون. وقد ازدان مجهودهم بالاعتراف الأعظم «إننا نجهل عن المعلم الأكبر أكثر مما نعرف."

المسيح

د. عبد العزيز عبد المجيد

[من أراد أن يكون فيكم عظيمًا فليكن لكم خادمًا]

يدل رقم التاريخ الميلادي الذي نطالعه كل يوم على السنوات التي مضت– على وجه التقريب– منذ مولد المسيح عيسى بن مريم حتى اليوم. وهو تاريخ تقريبي لأن من محققي المؤرخين من يقولون بأن مولد السيد المسيح كان سابقًا بنحو ستة أعوام لتلك السنة التي نعتقدها الىن سنة ميلاده، ونؤرخ بها.

ولما كانت تلك البلاد الواقعة شرقي البحر الأبيض إلى الجنوب هي موطن المسيحية الأول، ومكان مولد المسيح ومهد رسالته، وكانت قد شاهدت أحداث الرسالة العيسوية ونهاية صاحبها، كان جديرًا بنا أن نعود إلى الوراء نحوًا من عشرين قرنًا لعلنا نجتلي تلك الظروف الجغرافية والسياسية والثقافية والروحية التي سادت البلاد قبل مولد هذا السيد الكريم.

كان الخط الخيالي الممتد من مدينة صور على الساحل إلى جنوبي مدينة دمشق فاصلًا بين منطقة الجليل إلى الجنوب وسورية إلى الشمال.

وفي منطقة الجليل هذه بحيرة تسمى «بحيرة الجليل"- وهي الآن بحيرة طبرية نسبة إلى الإمبراطور الروماني طبريوس- وفيها جبال الجليل الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وفيها بلدة الناصرة أهم بلادها.

وإلى جنوبي الجليل تقع منطقة السامرة بجبالها، ثم منطقة يهودية التي يحدها شرقًا نهر الأردن والبحر الميت وغربًا البحر الأبيض، وفيها أشهر مدن فلسطين تاريخًا: أورشليم (القدس) وبيت لحم، والخليل، وبها جبال يهودية الممتدة في اتجاه جبال الجليل.

وكانت فلسطين تشمل هذه المناطق الثلاث: الجليل والسامرة ويهودية، وكانت جميعها خاضعة لحكم الرومان بعد حكم الإغريق والفرس.

كان يسكن البادية الجنوبية من فلسطين قبائل ترجع أصولها إلى سلالة الأدوميين الذين عاصروا عهد موسى وشعيب عليهما السلام. ولم يكن هؤلاء يهودًا ولا من نسل إسرائيل، بل كانوا لهم أعداء كارهين ومنافسين. وكان زعيم هذه القبائل- المسمى هيرود الأول - سياسيًا محنكًا طموحًا، يعرف خير الأساليب لتحقيق أهدافه! ناصر الرومان على منافسيهم من الفرس حينئذ، واعترف لهم بالولاء، واعتنق اليهودية لا عن مبدأ ولك رغبة في تحقيق غاية. وقد تم له ما أراد فنصبه الرومان ملكًا على يهود فلسطين، وإن لم يعد في سلطانه أن يكون ملكًا صوريًا.

وفي سنة ٢٧ ق.م ولي حكم الإمبراطورية الرومانية أغسطوس العظيم، فاتسعت مملكة هيرود الأول الذي أخذ يحاكي سادته الرومان في

البذخ والثراء، ومظاهر الترف واللهو، وإحاطة نفسه بالجنود المدربين على النظام الروماني، وكان هيرود إلى خلقه هذا ماكرًا خبيثًا يمالئ اليهود ويتقرب إليهم حرصًا على استبقاء سلطانه، حتى لقد جدد لهم معبد أورشليم، كما كان يمالئ الرومان كسبًا لرضاهم. لذلك لا غرابة أن كرهه اليهود وتمنوا الخلاص من سلطانه وأبقاه الرومان لمهارته ولباقته وولائه. غير أنه لما مات في سنة ٤ ق.م (التي هي في الحقيقة سنة اثنتين بعد الميلاد) أرسل زعماء اليهود وكهنتهم إلى الرومان يتوسلون إليهم أن يحكموهم حكمًا مباشرًا بدلا من ذرية ذلك الملك المنافق الطاغية. ولم يستجب الرومان إلى هذا التوسل، بل قسموا البلاد ثلاثة أقسام: الجليل، حيث ولد المسيح، وكانت من نصيب هيرود الثاني أنتيباس واليهودية من نصيب أرخلاوس، والسامرة من نصيب فليب.

لم يقبل اليهود هذا الوضع الجديد، فثاروا وتحدوا سلطة الرومان، وقاوموهم بالعنف تارة وبالمداهنة تارة أخرى، فحاربهم الرومان وصلبوا من ثوارهم ما يزيد عن عشرين ألفًا. وأخيرًا، وفي سنة ٦ م، رأى الإمبراطور أغسطوس حلا للمشكل أن يبقى الجليل تحت سلطان هيرود الثاني، وأن يجعل يهودية والسامرة تحت الحكم الروماني المباشر؛ فعين عليهما حاكمًا نائبًا عن عامل سوريه الروماني ومسئولا أمامه. وكان بيلاتس الذي يقرن اسمه دائمًا بمحاكمة السيد المسيح، الحاكم الخامس ليهودية والسامرة.

لم يكن سكان هذه المناطق الثلاث– الجليل والسامرة ويهودية، جميعًا يهودًا، بل كان منهم يونانيون استوطنوا البلاد منذ قرون واستقروا فيها،

وكان فيهم من وفدوا من فارس في قديم الزمن وتوطنوا واحتفظوا بتقاليدهم وعقائدهم، وكان منهم بابليون وآشوريون، وكان فيهم مصريون.

ذلك لأن هذه البلاد من شرقي البحر الأبيض كانت عند مفترق الطرق بين شرقي آسيا وأفريقيا، وبين الشمال والجنوب. وكانت منذ القدم ناشطة التجارة، بها موان عامرة تفد إليها السفن من جميع بلاد العالم، وترتاد سفنها بلاد العالم، فلا عجب أن كانت معبرًا للقوافل التجارية الضاربة في سيرها إلى أقصى الشرق والحاملة من المتاع والبضاعة ما تنقله السفن إلى أسواق العالم. وهي لهذا كانت مقرًا لمواطنين مختلفي الجنس واللغة والدين.

وكانت منطقة الجليل خاصة حافلة بالزائرين والمقيمين من ذوي الثقافات والعقائد واللغات المختلفة؛ يتكلمون الفارسية واليونانية والآرامية والآشورية بل والعرابية بله العبرية. وكان اليهود من أهل يهودية والسامرة يحقدون على أهل الجليل هذا الواقع الثقافي والروحي وينفسون عليهم ما هم فيه من رخاء اقتصادي وتسامح في الدين والمعاملة. وكان المتنقل في أرجاء فلسطين يشعر بهذه الفوارق الثقافية والروحية والاجتماعية عند ما ينتقل من مدينة لأخرى أو من منطقة إلى غيرها.

أما سائر اليهود من سكان بقية فلسطين فكانوا مللًا ونحلًا. كان منهم الصدقيون وهم سدنة المعبد وكهنته. وهم يدعون أن مهنة الكهانة في بيتهم منذ أقدم العصور لأنهم أبناء هارون وأبناء لاوى فلهم إذًا هذا الامتياز الرسمي الوراثي. وكانوا بحكم وظيفتهم هذه يسرفون في التمسك

بحرفية التوراة وكتب النبيين لدرجة جعلتهم شكليين يهتمون بحرفية النص دون جوهره. ولكنهم بالرغم من هذا يقلدون حكام البلاد من الإغريق والرومان في مظاهر الحياة والملبس والتمتع باللذات، وقراءة الفلسفة الهلينية. وكأنهم تطوروا إلى هذه الحال– كالارستقراط في كل مجتمع– ليحافظوا على مزاياهم المادية والاجتماعية، وليرضوا سادتهم من ذوي السلطان والنفوذ حتى لا يتخلوا عنهم. ولذلك كانوا يقاومون كل حركة يخشى منها سلبهم سلطانهم الديني. وكانوا ينكرون البعث والحياة الروحية في الدار الآخرة والخلود.

وكانت هناك طائفة الفريسيين، أي المتميزين الذين ميزوا أنفسهم بالروح الدينية، والبعد عن مظاهر الترف وعدم الاختلاط بالأجانب على عكس الصدوقيين. وقد انصرفوا إلى تفهم كتب الرسل والأنبياء وإتباع تعاليمها. ولذلك كانوا يشعرون بشيء من الكبرياء الثقافي ويتهمون الصدوقيين بأنهم يتاجرون بالدين وهمهم الغنائم المادية، وملذات العيش تحت ستار الكهانة. وكانوا متشددين يحاربون البدع وما هو أجنبي، وينكرون على الكهان احتكارهم الشعائر والمراسم الدينية وتقيدهم بالتعبد في الهيكل. وكانوا يؤمنون بالبعث بالروح والجسد معًا كما كانوا شديدي الوطنية؛ ولذلك اتهمهم الرومان بالتعصب، وصاروا موضع كراهية الحكام والكهنة معًا.

وثمة طائفة أخرى أقل عددًا ولكن أقوى عقيدة هي طائفة الآسيين أو الأطباء الروحانيين. وكانوا ينكرون تقديم القرابين وذبح الحيوان قربى لله.

وكانوا يعرفون الطب الروحاني ويحاولون إبراء المرضى بالصلوات والأدعية، كما يدعون علم العقاقير وخصائصها الطبية. وكانت لهم فلسفة روحية تحرم عليهم أن يملكوا أكثر مما يحتاجون إليه حتى ولو كان ثوبًا، أو أن يدخروا من الأغذية والأمتعة شيئًا. وسر ذلك أنهم كانوا يعتبرون المادة مصدر كل فساد. وكانوا لذلك يحرمون مزاولة التجارة ويعنون بالصناعة والزراعة، ويحرمون تجارة الرقيق. وكانوا يؤمنون باليوم الآخر والحساب ويعتقدون بأن خلاص العالم من الفساد سيكون على يد رسول يسمى المسيح.

وإلى جانب هذه الفرق الثلاث كانت فرقة السامرية. وأصلهم آشوريون حلوا محل اليهود الذي نفوا إلى ما بين النهرين وبابل. فاختلطوا ببعض اليهود الذين بقوا في البلاد. وكانت لهم تقاليد وعادات تختلف عن بعض تقاليد اليهود ومعتقداهم، منها عدم اشتراكهم في تقديس معبد أورشليم، وعدم التعبد فيه، وإن كانوا يؤمنون بتوراة موسى. وكانوا لا يؤمنون بما يؤمن به الصدوقيون من أن المخلص المنتظر سيكون من سلالة داود، وسيرد إلى اليهود مجدهم، ويجعل أورشليم عاصمة المملكة اليهودية الجديدة.

وثمة جماعة صغيرة وادعة هي جماعة النذريين أو النذورين. وكانوا من اليهود أيضًا، ولكن لهم فلسفة دينية طاهرة متواضعة تربطهم بالله مباشرة. فهم أصحاب فكرة ومذهب يتلخص في أن ينذر المرء نفسه، أو ابنه أو بنته بعد الولادة أو قبلها، للدين وخدمته. كراهية في الدنيا.

ومن صفات المنذور ألا يشرب الخمر وألا يدنس جسمه بملامسة أجسام الموتى. وعليه أن يرسل شعره فلا يلحقه ما دام منذورًا. وكان كثير من النبيين من المنذورين. وكثر عدد هؤلاء النذريين قبل مولد المسيح لأن الألف الرابعة من بدء الخليقة بالتقويم العبري كانت على وشك النهاية، وكان اليهود يتوقعون ظهور المسيح المنتظر حينذاك.

فكان النذر إذًا تعبيرًا عن أمل هو أن يكون المسيح أحد المنذورين.

هذه الطوائف على تنافرها كانت تدين بدين سماوي، ولكن كانت هناك طوائف الرومان الوثنيين من الجنود والحكام الذين يؤمنون بربوبية الإمبراطور، ويعبدونه، ويعتقدون أنه من نسل الآلهة، كما قال فرعون مصر لقومه: أنا ربكم الأعلى. وكانوا يسخرون من العقيدة اليهودية، ومن زعمهم أن الإله هو إلههم وحدهم، لا يشاركهم فيه غيرهم لأنهم الشعب المختار، على حين كان اليهود أنفسهم يزدرون العقيدة الرومانية الوثنية، ويرون فيها بدائية وجهلا يتنافى مع المجد الروماني، والحضارة الرومانية، وعظمة روما.

كان إذًا سكان تلك الرقعة من شرقي البحر الأبيض أحزابًا وشيعًا لا تربطهم أية رابطة قوية في الدين أو اللغة أو العاطفة القومية أو الثقافة، ولا يسودهم تفاهم في الأهداف، ولا تعاطف في التفكير والعمل، ولا تجاوب لمصلحة مشتركة. كانت كل فرقة تكره الأخرى وتزدري عقائدها وسلوكها الديني. وكان السكان طبقتين: طبقة الحكام الأجانب الوثنيين، وهؤلاء لا

هم لهم إلا استقرار نفوذهم بأي ثمن، وطبقة المحكومين من اليهود وغيرهم، وهم من رأينا تنافسًا وتنافرًا وضعفًا.

كانت طائفة الجيش مكونة من رجال جندوا من مواطن مختلفة، يسودهم الجهل والحمق، ولا يعرفون بجانب أداء واجبهم والنظام العسكري وروح الجندية إلا إشباع شهواتهم وإرضاء غرائزهم.

وكان أولو العلم من اليهود إما شكليين متزمتين، وإما نفعيين رسميين همهم المحافظة على وظائفهم. أما سائر السكان من عامة الشعب فلم يكونوا يحفلون بشيء، بل كانوا في بؤس ومرض وفقر ينتظرون الخلاص على يد رسول منقذ هو «المسيح».

كل هذا كان تمهيدًا طبيعيًا لثورة شاملة تقلب هذه الأوضاع البالية، وتقوض سلطان الطغيان، وتخلق فلسفة جديدة موحدة ذات أهداف إنسانية مشتركة سامية. ومن الظواهر الثابتة في التاريخ أن النفوس يصحبها قلق داخلي ثائر حين يصل الفساد إلى أقصاه، وحين لا يجد عامة الشعب منقذًا أو مخلصًا. وتظل النفوس تتطلع إلى هذا المنقذ أو الزعيم وتهيأ له، وتتحفز لتلك الساعة التي يظهر فيها لتلتف حوله حتى ولو كانت عزلاء. والناس ينظر بعضهم إلى بعض في صمت متسائلين: متى سيكون الخلاص؟

كان ظهور المخلص أو المنقذ إذًا ضروريًا، وكان لابد أن يولد هذا المخلص قبل أن يصل إلى السن التي تسمح له بإعلان رسالته، وإشهار ثورته. والمسلمون يجدون في القرآن أن المسيح عيسى بن مريم كلمة الله

ألقاها إلى مريم وروح منه، فمريم العذراء لم يمسسها بشر ولم تك بغيًا. ومثل عيسى عند اله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون. وولادة عيسى من أم عذراء أقصى ما يمكن من تكريم بشرى لمولود لأنه روح من الله تجسدت في صورة إنسان. وفي الأناجيل روايتان إحداهما تقول بانه ابن يوسف النجار وزوجه مريم، وأنه من نسل داود من جهة أبيه، وأن ولادته كانت في «بيت لحم» حينما ذهبت مريم وزوجها إلى الناصرة لزيارة بعض الأقارب؛ والأخرى أن أمه مريم تلقت رسالة إلهية عن طريق الملاك يبشرها بغلام سيكون المنقذ للبشر، ورسول الله إليهم لخلاصهم. وهذه الرواية الثانية تتفق ورواية القرآن.

أما نسبة بنوته لله، تلك التي ظلت محل الجدل قرونًا طويلة فالمتأمل يجد في الظروف التي ولد فيها هذا السيد تفسيرًا سهلًا لا لبس فيه ولا تعقيد.

الله هو رب الجميع، والمربي أكثر من أب لأنه المتعهد للجسم والروح معًا. ولم يكن للمسيح أب مادي، ولم يكن المسيح مولودًا عاديًا فلابد له من موجد وخالق ومرب يكون مصدر وجوده، والمشرف على نموه.

ومن يكون هذا غير الله. فبنوته إذًا بنوة مجازية! أليس هو كلمة الله وروحًا منه!

ولا يعرف إلا القليل عن طفولة هذا المولود ونشأته في بلدة الناصرة.

وكان اسمه الأول الذي أطلق عليه «يهوشع» ففي إنجيل لوقا «فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمى يسوع» وكلمة يهوشع هذه عبرية.

وتتكون من «يهو» وهو اسم الله بالعبرية و «شع» ومعناها الإنقاذ أو المنقذ، فالاسم إذًا معناه «المنقذ بالله».

وليس لدينا من الوثائق ما يشير إلى نوع التعليم الذي تلقاه قبل سن الثانية عشرة تلك السن التي ذهب فيها مع والدته ويوسف النجار إلى زيارة المعبد في أورشليم في عيد الفصح «وبقي الصبي عند رجوعهما في أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان. وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم، وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف. ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه؛ فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسًا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم. وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته. فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه: يا بني لماذا فعلت بنا هكذا..؟ فقال لها: لماذا كنما تطلباني؟ ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي؟ فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما. ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة... وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس[11]» والغالب أنه كان على صلة بعلماء الجليل يتلقى عنهم أحكام التعاليم اليهودية، ويدرس عليهم التوراة وكتب النبيين، وتاريخ قومه.

(11) إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني.

وممن أثر في حياة عيسى بن مريم الروحية النبي يحيى بن زكريا المعروف بيوحنا المعمدان. ولهذا النبي تاريخ عظيم يمكن إيجازه.

كان أبوه زكريا شيخًا يخدم في المعبد، ولم يكن له من ولد. فنادي ربه نداء خفيًا: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا تَقِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا}(١٢)».

ونشأ الطفل يحيى منذورًا لعبادة الله، وخدمة الهيكل، ودراسة الكتب الدينية. وكان كسائر الأنبياء يتهجد وينفر من المجتمعات، ويعيش عيشة تقشف وزهد واحتقار للدنيا. فلما ظهرت دعوته أخذ يتحدى ما كان عليه بنو إسرائيل وغيرهم من سكان فلسطين من خطيئات وفساد. وكان يدعوهم إلى التطهر من هذه النجاسات بالماء والاغتسال، ولذلك أطلق عليه اسم «يحيي المغتسل» أو «يوحنا المعمدان» كما في الأناجيل.

---

(١٢) سورة مريم.

كان السيد المسيح من أقارب الرسول يحيي المغتسل وممن تتلمذوا عليه. وذات يوم كان يوحنا هذا يطهر الناس من آثامهم، فيأمرهم بأن يغتسلوا بماء الأردن. فتتابع عليه الناس من كل فج، ومن بينهم السيد عيسى بن مريم. وهناك قال للرسول يحيي ما يساوره من لمحات دينية، وإيحاء روحي، وشعور داخلي بالثورة ضد الفساد.

ثم كان من أحداث المجتمع الآثم أن الملك هيرود الثاني تزوج من أخت هيرودية وزوجها حي. فأخذ الرسول يحيي يندد بهذه الخطيئة في مجالسه، ووصل هذا التنديد إلى مسامع هيرود. وفي ليلة من ليالى اللهو رقصت بنت أخته بين يديه، فأعجب بها ووعد أن يمنحها ما تريد.

فطلبت أن يؤتى برأس يوحنا المعمدان في طبق. فكان لها ما طلبت.

ولم يحاسب هذا الملك العاهر على فعلته.

هكذا كانت الحال قبل ظهور الدعوة العيسوية: فجور من سراة القوم، ونفاق من رجال الدين الموظفين، وطغيان من الحكام الرومان، وانحراف عن تعاليم موسى، وإسراف في المادية والربا، وتنافس وتباغض بين الطوائف لأغراض دنيوية. وتجارات باسم الدين في الهيكل نفسه الذي كانت أفنيته الخارجية غاصة بالتجارة والمرابين. وكانت بيوت الزنا واللهو مفتوحة للجماهير، ولا هم لرجال الدين المحترفين إلا محاكمة من يثبت عليه الزنا. وكان الناس مرهقين بالضرائب، واليهودي منهم يؤدي ضريبتين: إحداهما للهيكل والأخرى للدولة: «وكان أداء ضريبتين عبئًا فوق طاقة

الفقراء. ولكنه– مع العسف في تحصيل ضريبة الدولة– كان عبئًا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء؛ لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة» يتعهد بها من الجباة أو العشاريين من يعد بدفع أكبر مال. وكان هؤلاء الجباة يأخذون لأنفسهم أيضًا شيئًا غير الذي يسلمونه للملتزمين. وكان أحبار اليهود– مع هذا– لا يقرون ضريبة الدولة، لأنها تؤخذ لحاكم من غير بني إسرائيل، حاكم يدعي الألوهية، وهم لا يقرون إلا إلهًا واحدًا وملكًا واحدًا هو «يهوا».

كانت كل هذه الظروف إرهاصًا لظهور من يخلص الناس مما هم فيه من بؤس وخطايا. وكان الناس يتوقعون هذا المنقذ، ويلتمسون ظهوره. ولكن كل طائفة من بني إسرائيل كانت تنتظر أن يكون هذا المنقذ منها.

ولم يتوقع اليهود أن يظهر هذا المنقذ من «الجليل"؛ لأن سكان الجليل لم يكونوا في تطهر «الدينيين العلمانيين» متمسكين بدين إسرائيل أو ثقافة إسرائيل؛ لقد كانوا متسامحين، وكان أغلبهم يتكلمون الآرامية، وينطقون العبرية بلهجة أجنبية. فكان أهل الجليل إذًا منظورًا إليهم بعين الشك والإنكار.

ويرى المؤرخون أن عيسى بن مريم كان في سن الثلاثين أو نحوها حين بدأ رسالته، وأنه بدأ بعشيرته من أهل الجليل، وأنه بدأ معلمًا وهاديًا ومبشرًا ونذيرًا باسم يوشع لا باسم «المسيح».

كان يوشع ثائرًا، ولكنه ليس في ثورة «يحيي المغتسل» الجريء المهاجم في صراحة وقوة، بل كان رقيقًا في دعوته وتعاليمه رقة الماء يتساقط على الحجر الصلب فيبريه حتى يذيبه ويكتسحه. وقد تتجمع هذه القطرات فتصير مسيلًا يجري في هويني ورفق، ولكنه يجرف أمامه كل ما يصادفه من حطام بالٍ.

لم يكن ظهور صاحب رسالة جديدة مفاجأة للمجتمع الفلسطيني، لأن ذلك لا يتفق وسنة التطور الاجتماعي، ولأن الوقت كان قد حان لقيام ثورة على يد من يخلص ذلك المجتمع من أدرانه: «وعالم إسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر، وبموعده في تلك الحقبة من الزمن. والعالم المعمور كان يؤمن إيمانًا سلبيًا بإفلاس الوثنية، وإقفار النفوس من الرجاء. وكانت عامته في بؤس ويأس وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف. من كان منهم يفكر دان بالأبيقورية أو دان بالرواقية. ومن كان مطبوعًا على التدين والبحث في شئون الغيب دان بنحلة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات.

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والرواقية والنحل السرية. فهم إذًا في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء... كان العالم في عصر الميلاد محتاجًا للعقيدة، مستعدًا لسماعها ما في ذلك من ريب، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك

العقيدة عفوًا صفوًا بغير جهاد من رسلها ودعاتها، وبغير كفاية عالية من أولئك الرسل والدعاة[١٣]».

بدأ يوشع رسالته معلمًا يهدي من حوله من متواضعي الناس في الجليل، وممن التفوا حوله يودون التلمذة عليه. وواضح من تعاليمه أنه كان عالمًا بجميع ما في التوراة وكتب الأنبياء، وكان على صلة بالثقافة اليونانية السائدة في عصره. ولم يكن صاحب هذه الدعوة بالرجل العادة بل كان عبقري الذكاء، موفور الجد، مرهف العاطفة، مكتمل النضج، قوى العارضة، حاضر البديهة. ولم تطل مدة رسالته فقد ظل يجوب القرى والبلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه حتى هبط أورشليم. وهناك وجد الكهنة ورجال الدين من أبناء إسرائيل قد أعدوا له التهمة ليتخلصوا منه.

ولم تكن تهمته غير محاولته أن يقيم مملكة عجيبة في أرض يهودية سماها «مملكة السماء».

كان أشد المبادئ الثورية التي جاء بها يهوشع مبدأ مملكة السماء، ذلك لأنه رأى اليهود كانوا قد احتكروا لأنفسهم الله فجعلوه إلههم وحدهم، وجعلوا أنفسهم الشعب المختار، ونظروا إلى بقية الشعوب على أنها دونهم منزلة عند الله. وهذه النظرة القبلية المحدودة جعلت اليهود حيث يحلون يعيشون شعبًا منعزلا لا يقر لغيره من الشعوب بالمساواة، ولا يعترف بأخوة غير اليهود. فجاء هذا المعلم الأعظم يهدم أول ركن من أركان

---

(١٣) عبقرية المسيح لعباس العقاد، ص ١٦٦.

اليهودية وينادي بإله مشترك لجميع البشر، وأن ليس هناك شعب مختار، وأن لا حظوة في مملكة السماء، وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء يشملهم كلهم برعايته على السواء. وأن كل الرجال أخوة، وأنهم مخطئون على السواء وأبناء محبوبون من الوالد المقدس على السواء.

كانت إذًا فكرة أبوة الله للجميع فكرة عالمية تهدف إلى إلغاء ذلك الامتياز السخيف الذي قسم بني البشر قسمين إلى أرستقراط وسوقة. ولم يقتصر هذا الثائر الكريم على تحدي وطنية اليهود القبلية، بل كان يبتغي أن يكتسح هذه العواطف الضيقة طوفان جارف من حب الله.

فكان لابد لمملكة السماء بأسرها من أن تكون عائلة واحدة. ويحدثنا إنجيل متى بقوله «وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجًا طالبين أن يكلموه. فقال له واحد: هو ذا أمك وإخوتك واقفين خارجًا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: من هي أمي ومن هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: ها أمي وإخوتي لأن من يصنع وفق إرادة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي"[١٤]

ولم يكن هذا المبدأ موجهًا ضد اليهود فحسب ولكنه موجه إلى النظام الذي كان سائدًا في عصره؛ نظام السادة والأرقاء، والأباطرة المؤلهين، وطبقات الحكام والمحكومين. وكان بهذا المبدأ يرمي إلى الإخاء بين جميع الناس وأن لا فضل لأحد على آخر إلا بالعمل الصالح.

([١٤]) معالم تاريخ الإنسانية لمؤلفه هـ. ج. ويلز، الجزء الثالث ص ٥٠١ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد.

ومن المبادئ الثورية التي جاء بها يهوشع مقاومته الرياء والنفاق والاتجار باسم الدين، وقد كانت هذه هي الحال الشائعة في عصره بين الكهنة ومعظم رجال المعبد من بني إسرائيل. فقد حسبوا أنهم بهذا الامتياز الديني قد اكتسبوا فضائل الحياة. وقد نفى ذلك عنهم يهوشع الرسول فضرب لهم مثلا بإنسان «خرج عليه اللصوص في الطريق فسلبوه وخربوه وتركوه بين الحياة والموت، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه، وجاء لاوي فمضى ولم يلتفت إليه.... ولكن سامريًا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه، وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق، وأولاه عنايته. ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليهن ويعتني به. ومهما ينفق عليه فهو موفه عند مرجعه» ثم التفت السيد الرسول إلى تلاميذه وسألهم: «أي هؤلاء الثلاثة أقرب إلى ذلك الصريع الجريح؟».

إن هذا المثل وكثيرًا غيره مما أوثر عن تعاليم المسيح ليعد ثورة على القيم الأخلاقية التي اطمأن إليها ذوو النفاق من رجال الدين في عصره، الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل. ولقد تحداهم في علانية واضحة حينما أتوا له بامرأة زانية، وسألوه عن عقابها قائلين: أنرجم هذه الزانية؟ فكشف لهم عن حقيقة نفوسهم بقوله: من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر. وبهذا الأسلوب البارع في التقريع أفحمهم، دون أن يعارض أحكام الشريعة الموسوية.

وكانت ثورة هدا الرسول الكريم على التمسك بالقشور وإهمال اللباب من الدين والفضائل واضحة في تعاليمه كلما عرضت مناسبة

لذلك. فحين انتقد بعضهم تلاميذه لأنهم كانوا يأكلون الطعام قبل غسل أيديهم وقبل التلاوة على الطعام قال لهم: «إن ما يدخل الفم لا يدنس الضمير، وإن الدنس إنما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والفسوق والكفران.» «واجتمع الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم. ولما رأوا بعضًا من تلاميذه يأكلون خبزًا بأيد دنسة، أي غير مغسولة، لأموا؛ لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ. ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون، وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها؛ من غسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرة. ثم سأله الفريسيون والكتبة: لماذا لا يسلك تلاميذك حب تقليد الشيوخ، بل يأكلون خبزًا بأيد غير مغسولة. فأجاب وقال لهم: حسنًا تنبأ إشعيا عنكم أنتم المرابين كما هو مكتوب؛ هذا الشعب يكرمني بشفتيه. أما قلبه فمبتعد عني بعيدًا، وباطلا يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس. لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس؛ غسل الأباريق والكؤوس وأمورًا أخرى كثيرة مثل هذا تفعلون. ثم قال لهم حسنًا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقالديكم[١٥]».

وراح يقول لهؤلاء الذين يفاخرون بالعلم ومعرفة قواعد الدين: «إن الدين بما تعمل لا بما تعلم"

يا أيهـــا الرجـــل المعلـــم غـــيره   هـــلا لنفســـك كـــان ذا التعلـــيم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا   كيمـــا يصـــح بـــه وأنـــت ســـقيم

(١٥) إنجيل مرقس، الإصحاح السابع ١– ٩.

وكان من تحديه لأولئك الذين يتمسكون بشكليات الدين ما ذكره لتلاميذه «قيل للقدماء لا تقتل، ومن يقتل وجب عليه العقاب. أما أنا فأقول لكم: إن من يغضب على أخيه باطلًا يأثم ويخزي... فإن قدمت قربانك وذكرت حقًا لأخيك عليك فدع قربانك أمام المذبح واذهب قبل فصالح أخاك.

وقيل للقدماء لا تزن. أما أنا فأقول لكم إن من ينظر إلى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تلقي بك في العثرات فاقلعها وألقها عنك، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك..

وقيل للقدماء لا تحنث... وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا.. وليكن كلامكم كله نعم نعم. لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشيطان..

وسمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقابلوا الشر بالشر. ومن لطمك على خدم الأيمن فحول له الأيسر.. ومن سخرك ميلا واحدًا فاذهب معه ميلين.

وسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم... وأحسنوا إلى مبغضكم، وادعوا إلى من يسئ إليكم ويطردكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. فإن تطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويرسل غيثه للأبرار والظالمين. وأي أجر لكم إن

أحببتم من يحبونكم. أليس العشارون يفعلون ذلك؟ أو أي فضل تصنعون إن خصصتم إخوتكم بالسلام؟ أليس العشارون يفعلون ذلك؟ فيعلقوا أنتم بالكمال فإن الله كامل... يحب الكمال..».

أي مثل أخلاقية يمكن أن تكون في أي شريعة من الشرائع أسمى من هذا الصفح والغفران ألم يأمر السيد المسيح في حديثه هذا بما أمر به الله في قرآنه الكريم {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.. وقد يأخذ بعض الناس على تعاليم السيد المسيح هذه بأنها تعاليم سلبية فيها كثير من الضعف والخنوع. ولكن الحكم على أي مبدأ أخلاقي إنما يجب أن يكون في ضوء ما هو سائد في العصر الذي شرع فيه هذا المبدأ. ولقد كان عصر ظهور المسيحية عصر استبداد القوى بالضعيف وسيطرة الحاكم العاتي على المحكوم المغلوب. فمقاومة الضعيف المحكوم إذًا لم تكن ممكنة عمليًا ولا مجدية، وخير لمن يعتدي عليه في هذه الحال أن يروض نفسه على التسامح والحب من أن يثور ثورة المنتقم وهو أعزل. ولقد كان هذا المبدأ هو الذي اتخذه السيد المسيح نفسه عندما وجهوا إليه التهم ونصبوا له الحبائل للإيقاع به، فلم يقاوم. وهو مبدأ أساسه الحب الذي قصد المسيح أن يسود جميع البشر، والذي لخصه في قوله: «أن تحب ربك بجماع قلبك، ومن كل نفسك وفكرك، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك.» وأي خلاف بين هذا القول وقول مُحَمَّد عليه السلام «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»؟ كلا القولين شرط للإيمان.

ولم تكن ثورة السيد المسيح الهادئة مقصورة على الاحتكار الديني الذي خص بنو إسرائيل أنفسهم به، ولكنها كانت كذلك ضد النظام الاقتصادي الشره الذي نتج عنه التكالب المادي والربا، والتنافس على جمع المال بأي أسلوب وفي أي مكان حتى في الهيكل المقدس نفسه.

إن ثورته على النظام الاقتصادي كانت جزءًا من الصورة التي رسمها للملكة السماوية الفاضلة التي كان يدعو إليها، فمملكته هذه مملكة حب وإخاء وبعد عن الشهوات المالية. لأن كل الناس أبناء الله، وكلهم أعضاء في هذه المملكة، وكل ممتلكاتهم تدخل ضمن هذه المملكة.

"والحياة الصالحة البرة لكل الناس، الحياة البرة الوحيدة، إنما هي في خدمة إرادة الله بكل ما تملك من قوة. ولذلك كان يشهر بالثروة الخاصة مرة بعد مرة، كما ذم مرارًا وتكرارًا الاحتفاظ بأي حياة خاصة. يبدو هذا مما ورد عنه في إنجيل مرقس (١٧– ٢٥):

"وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثا له، وسأله: أيها المعلم الصالح. ماذا اعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحدًا وهو الله. أنت تعرف الوصايا لا تزن، لا تقتل! لا تسرق، لا تشهد الزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك. فأجاب وقال له: يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي، فنظر إليه يسوع وأحبه، وقال له: يعوزك شيء واحد. اذهب بع كل مالك، وأعطه الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملا الصليب. فاغتم على القول ومضى حزينًا لأنه كان ذا أموال كثيرة، فنظر يسوع حوله، وقال لتلاميذه:

ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله! فتحير التلاميذ من كلامه. فأجاب يسوع أيضًا، قال لهم: يا بني. ما أعسر المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله. مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله».

ويرى بعض الناقدين أن هذا مذهب في الزهد عن الحياة غير عملي وهم بهذا ينسون تلك الظروف التي أحاطت بظهور المسيحية ومن أجلها قامت هذه الديانة الجديدة، إن أي ناقد اجتماعي لنظام من النظم ليخطئ الحكم إذا لم يرجع في دراساته إلى جو ذلك العصر الذي ظهر فيه النظام وإلى ما كان يقاسيه المجتمع حينذاك من فساد أو تدهور، ويكشف عن عوامله. والسيد المسيح كان معلمًا وموجهًا ومصلحًا يريد أن يقود الناس بعيدًا عما كانوا فيه من تكالب على الأموال والملكيات، فلا عجب إذًا أن كانت دعوته موجهة ضد تلك الروح المادية التي سادت جمهور العصر، والمقارنة بين دعوى المسيحية هذه الزاهدة في المال وقول مُحَمَّد رسول الله «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» مقارنة تحتاج إلى دراسة العصرين اللذين ظهرت فيهما الدعوة العيسوية والدعوة المحمدية، وظروف كل منهما.

ولقد ذهب الناس يفهمون من دعوة السيد المسيح إلى مملكة أنها مملكة حقيقية، ويتصورون أنفسهم أعضاء فيها كعضويتهم في مملكة الأرض، وذهب بهم الخيال كل مذهب وكلن عيسى الرسول إنما كان يدعو إلى مثل عليا في الأخلاق والحياة الفاضلة، وما كانت المملكة التي يدعو

إليها إلا صورة اجتماعية رسمتها عبقريته للحياة الجديدة التي كان يوجه الناس إليها.

على أن بعض المؤرخين[١٦] لا يرون فيما أعلنه السيد المسيح مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية، ويجدون عشرات من الأدلة التي تشير إلى «أن تعاليمه كان لها نزعة سياسية من أبسط الأنواع. حقًا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم، وإنها موجودة في قلوب الخلق، وليست فوق العروش، ولكن يضارع هذا في الوضوح أنه حيثما أقيمت مملكته، وأيا كان القدر الذي تقوم عليه في قلوب الخلق فإن العالم الخارجي سيتجدد، وينقلب انقلابًا ثوريًا بنفس ذلك المقدار».

ويعتمد هؤلاء المؤرخون على الحادثة التي وردت في إنجيل مرقس[١٧] وهي (ثم أرسلوا إليه قومًا من الفريسيين... لكي يصطادوه بكلمة.

فلما جاءوا قالوا له: يا معلم، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، بل الحق تعلم طريق الله. أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ تعطي أم لا تعطي؟ فعلم رياءهم، وقال لهم: لماذا تجربونني، أتوني بدينار لأنظره، فأتوه به. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له لقيصر. فأجاب يسوع، وقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله."

---

(١٦) مثل هـ. ج. ويلز في كتابه معالم تاريخ الإنسانية، ج ٣، ص ٢– ٥٥٣.

(١٧) الإصحاح الثاني عشر، الآيات ١٣– ١٧.

ألم يكن هذا جوابًا بارعًا مفحمًا لم يستطع أن يجد فيه خصومه مطعنًا؟ لقد كان كذلك. ولكن المتعمق في فهمه يدرك أنه جواب لم يبق لقيصر في قلوب الناس شيئًا، وإنما اعترف له بالشيء القليل الزائل وهو المال. ولم يكن المسيح ليحفل بالمال أو يقيم له وزنًا في شريعته الجديدة، وفي مملكة السموات التي يدعو إليها.

لقيت دعوة المسيح من الفقراء والمحرومين والمضطهدين آذانًا مصغية، وقلوبًا واعية، فتبعوه وأخلصوا له. أما المنافقون من رجال الدين، وأما الأغنياء، وأما الحكام فخافوا على سلطانهم وأموالهم أن تزول. ولذلك قاوموه وهزئوا به، حتى لقد حرفوا اسمه الكريم المعني وهو يسوع أو يهوشع، فقلبوه ونطقوا آخره أوله وسموه «عيسى» احتقارًا وسخرية.

وجاء دور المحاكمة، واتهم بأنه يدعو إلى مملكة جديدة غير مملكة قيصر، لقد صوروه للحاكم الروماني بيلاتوس بأنه خائن خيانة عظمى، وأنه ثائر على الأوضاع السياسية، وأصدروا حكمهم بعقابه كما يعاقب اللصوص والخونة؟ الصلب! ومن كان أعضاء هذه المحكمة يا ترى؟ لم يكونوا غير رجال الدين من أهله اليهود.

ومهما يكن من خلاف بين المسلمين والمسيحيين في أمر صلبه ورفعه، وهل صلب فعلا، أو رفع بجسده وروحه قبل صلبه أو بعد صلبه، أو رفع بروحه فقط فالمسألة طويلة الجدل متشعبة الشجون.

ولعلها مناقشة شكلية في نظر الذين يعتبرون رسالة الأديان رسالة اجتماعية أخلاقية إصلاحية، وأن عظمة أصحابها مقرونة دائمًا بعظمة الرسالة نفسها، وأثرها الإصلاحي في حياة المجتمع. ولم ينل رسول من الرسل في القرآن الكريم وعند المسلمين من القداسة والاحترام ما ناله السيد المسيح.

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ}.

محمد "ﷺ"

الأستاذ/ مُحَمَّد مصطفى عطا

لم يشهد مُحَمَّد الرسول أباه عبد الله بن عبد المطلب فقد فارق الحياة، ولما يزل مُحَمَّد حملًا مستكنًا في بطن أمه، ثم لفظت أمه أنفاسها الأخيرة أمام عينيه في طريق عودتهما من المدينة إلى مكة بعد زيارة قصيرة لأخواله من بني النجار، وهو صبي لم يتجاوز السابعة من عمره؛ فعاش مُحَمَّد يتيمًا، وعمل هذا اليتم عمله في نفسه؛ فأرهف حسه، وفتح عينيه على أنداده الذين فقدوا آباءهم، ففقدوا فيهم الحنان والعطف، وإذا ينابيع الرحمة تتفجر في نفسه، وإذا هو ينشأ على رعاية أمثال هؤلاء الذين امتحنهم القدر، وأصابهم في أعز ما يملكون.

ولم يذق مُحَمَّد مرارة اليتم في صغره فحسب، بل عانى ألم الفقر، فأريد على أن يرعى الغنم، وأن يمتهن هذه المهنة، وأن يعمل على إعالة نفسه حتى يجد لقمة العيش، فلا يحيا عالة على غيره، ولا يترك نفسه نهبًا للجوع والمسغبة.

وبهذه الحياة التي عاشها ذاق لذع الفقر إلى جانب مرارة اليتم؛ مثل هذا الفتى الذي عانى هذه المعاناة إذا أهل نفسه لدعوة، أو دعاه ربه لينهض بعمل عظيم، فسوف تجد هذه الحياة التي تنفس فيها، منافذ في دعوته، ومقامًا أول في رسالته.

وهذا ما كان.

الدعوة والأرقاء:

فالدعوة المحمدية قد التف حولها قليل في أول أمرها، وهذا القليل كان كثيره من هؤلاء المستضعفين الذين وجدوا قسوة في حياتهم أو في ظل النظام القائم، نظام الأشراف والسادة، نظام الأرستقراطية التي كانت تهيمن آنذاك على سكان مكة، ولا تكاد تحفل بالأرقاء أو الفقراء أو العجزة فهؤلاء عبيد الطبقة الحاكمة، وهؤلاء هم المعذبون في الأرض، أو المنبوذون في دستورهم أو شريعتهم.

فماذا فعلت الدعوة الإسلامية التي حمل لواءها مُحَمَّد بن عبد الله بالنسبة إلى الأرقاء أولا؟

إن الإجابة عن هذا السؤال قد عني بها أغلب الكتب الإسلامية المختلفة، والتي يمكن أن نجملها في أن الدعوة قد قامت بواجبها في هذا الصدد بما لم تأت به شريعة سماوية أو وضعية غيرها، وبخاصة في ذلك العصر الذي يباعد بيننا وبينه مئات السنوات، أو على وجه أدق ثلاثة عشر قرنًا، عصر الظلمات، عصر البغي والجور، عصر القوة وفلسفة الغاب.

في هذا العصر البعيد حضت الدعوة الإسلامية على تحرير الأرقاء، وتدرجت في هذا تدرجًا يستثير الإعجاب؛ فمن أقدم على جرم كفر عنه بتحرير رقبة؛ بل إن البر كل البر في فك هذه الرقاب {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا

وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}

بل إن الدين الإسلامي جعل تحرير الأرقاء ضربًا من حمد الله على نعمه في قوله تعالى {فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}.

وأمر بأن يوجه ثمن أموال الزكاة والصدقات لتحرير الأرقاء {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ}.

وحض المسلمين في قوة على أن يحرروا من تحت أيديهم من رقيق، فقال محمد عليه السلام «أيما رجل أعتق امرءًا مسلمًا استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا من النار».

ويسر للمسترق خروجه من الرق بدفع ما عليه من مال لسيده. بل إنه أوجب على السيد أن يعينه على التحرر من ماله {وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}

بمثل هذه الصراحة، وبمثل هذه القوة، وبمثل هذه الحماسة، دعا النبي عليه السلام المسلمين إلى التحلل من هذه الوصمة الإنسانية، فكيف يتقاعد مسلم له حق السيادة عن تلبية هذه الدعوة الكريمة، عندما يسمع هذا الحديث الكريم، هذا الحديث الذي يحمل أسمى معاني الإنسانية؟!

هذا الحديث الذي يغري المسلم إغراء، ويدفعه دفعًا إلى أن يحرر هؤلاء الأرقاء الذين يملكهم.

ولم يمسك الرسول عند حد هذا الحديث بل دار أغلب كلامه على رعاية هؤلاء الأرقاء، والبر بهم وعدم انتهارهم أو الإساءة إليهم، فإن أقدم على أي من هذه الأمور المذلة للكرامة الإنسانية كان جزاؤه تحرير من أساء إليه منهم حين قال «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه».

ومعنى هذا أن كثيرًا من الأرقاء قد حررهم المسلمون المتملكون تلبية لرغبة الرسول الملحة؛ لأن المسلم إذا لم يستجب لهذا النداء في حال الإيذاء، فسوف يلقى من ربه عذابًا شديدًا؛ فقد كان النبي عليه السلام دقيقًا في تعبيره إذ أنه جعل اللطم أو الضرب من الأوزار الثقيلة التي تستتبع الكفارة.

وأي كفارة!! أنها كفارة عتق الرقبة.

ومما يلفت النظر، ويستأهل الوقفة التعبير بالرقبة عن المسترق، ولعمري إن هذا التعبير نفسه يحمل معنى من معاني الإنسانية إذ أنه يمثل أدق تمثيل ما يعانيه المستعبد من ضيق وخنق، وذلة وخضوع ليستدر به

عطف السادة، ويثير فيهم الإشفاق فالنخوة لدفع الضيق عنه، وتحريره مما يلم به.

وقد كان عليه السلام إنسانيًا حقًا حين وضع لمعاملة هؤلاء الضعفاء أو المملوكين هذا الدستور الرفيع حين قال «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم؛ فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».

نطق بهذا مُحَمَّد عليه السلام، وأراد أنصاره على التزام هذا السلوك في العصر الذي صورنا جانبًا منه، وفي مجتمع قبلي لا يعرف إلا شريعة الغاب؛ شريعة النهب والسلب، وشريعة الإغارة وشن الحروب، وفي ظل نظام يمكن للأثرياء في التحكم في الفقراء، وللأقوياء في التسلط على الضعفاء، النظام الذي جعل شعاره «جوع كلبك يتبعك».

محمد والمرأة:

وهو مُحَمَّد بن عبد الله الذي رد إلى المرأة المستضعفة حقوقها، وشرع لها تشريعًا عادلًا سواها بالرجل، وقد كانت في الجاهلية تباع وتشترى، وتورث كالمتاع سواء بسواء.

فإذا هو يجعل لها شخصيتها، ويعاملها معاملة الإنسان، ويحررها مما كانت فيه من ربقة الاستعباد؛ فقد قرر لها حرية الزواج ترفض من تشاء، وتتزوج ممن تشاء، حين شرط لتمام عقد الزواج قبولها، والخطبة رؤية شريكها.

وجعل لها حق الميراث، ولأن الرجل في المجتمع عليه تبعات وأعباء، تتطلب منه أموالًا قصر إرثها على النصف مما يرثه أخوها، وهي ترث زوجها، وترث والديها، وترث ابنها...

وهي تقوم بالمتاجرة، وتصحب الجيوش في الحرب، لتنهض بالسقاية وتضميد الجروح، فإذا تأزمت الأمور حاربت في صفوف المحاربين لتنقذ دينها، وتحمي حمى أرضها.

وهي تتحدث في العلم وفي الدين.

حدث هذا في عهد الرسول، وفي عهد الصحابة، ولم ينكر أحد منهم عليها هذه الوجهة، فأي إنسانية أروع من هذه الإنسانية وأرحب!!

الدعوة والمساواة

وهو مُحَمَّد بن عبد الله الذي سوى تسوية عملية بين المسلمين؛ فقرر مبدأ المساواة بما لم تقرره شريعة من الشرائع، أو هيئة من الهيئات، أو ثورة من الثورات.

«فالمسلمون سواسية كأسنان المشط» «والمؤمنون إخوة».

وأهم فرض من فرائض الدين، وهو الصلاة، والذي يكرر في اليوم خمس مرات يقف الغني في أدائه إلى جانب الفقير، والأبيض إلى جانب الأسود أو الأصفر، فلا تمييز في اللون ولا تفرقة في الثروة أو الجاه أو السلطان.

وفي الحج يتجرد الناس من ملابسهم المهلهلة أو المزركشة على السواء، ويلبسون لباسًا واحدًا حتى يكفكف من جماح كبريائهم، ويجعلهم يقفون أمام الله سواء.

وقد ألزم أنصاره الصوم، والكف عن الطعام، حتى يذوق الغني مرارة الحرمان، ويعرف مدى ضراوة الجوع، فلا يمسك يده عن مسكين ولا ينهر سائلا يمر به.

{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}.

الإسلام والفقراء:

وهو الإسلام الذي فرض الزكاة وجعلها حقًا للسائل والمحروم، وأمر بالصدقات والبر بالفقراء، وحارب كنز الأموال وحبسها عن المحرومين والمعوزين، وشن حربًا عنيفة على المستغلين للفرص من أمثال المرابين والبخلاء والأشحاء. إنه وصم هؤلاء بصفات خسيسة ذميمة تبعدهم عن حظيرة المجتمع الإنساني

وقد فعل ذلك برًا بالفقراء، وإشعارًا لهم بكيانهم، وأن لهم حقوقًا على المجتمع، وإذا كان القدر قد حاربهم في أرزاقهم، أو أنهم قد استقاموا على الطريقة، فلم يسلكوا مسالك ملتوية لجمع المال كما فعل غيرهم، أو أنهم لم يولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب كما يقول المثل، فلا أقل من أن نكافئهم بعض المكافأة على طول جهادهم ومر كفاحهم.

وإذا كان المجتمع لا ينهض إلا بهم، ولا يتماسك إلا بنضالهم، فما أحراه وما أحرى مُحَمَّد بن عبد الله أن يوفر لهم لقمة العيش، ويهيئ لهم حياة الإنسان الكريمة، وألا يضع هذه النفس البشرية تحت نير القساة المتجبرين.

وهذا ما فعله رسول الإنسانية مُحَمَّد بن عبد الله.

الدعوة والتوحيد:

ولعله كان من الأليق بنا أن نصدر هذا البحث بأروع جانب إنساني، أراده مُحَمَّد عليه السلام لبني جنسه؛ ذلك هو التوحيد أو عبادة إله واحد، لا يحده زمان ولا مكان، ولا يرمز إليه بصنم أو مثال.

إنه بهذه الدعوة كرم العقل الإنساني، ورد إليه مكانته، وقضى على الشرك، وأزال عبادة الوثن؛ تلك الوصمة التي كانت نقطة سوداء في جبين الإنسان البدائي، فما بالك بإنسان العصور الوسطى!!

لقد جهدت اليهودية والمسيحية في بلاد العرب، للقضاء على هذه العبادة فلم تفلحا؛ وجهد الموحدون أو التائبون أو الحنفاء لنزعها من نفوس الأعراب فأخفقوا أيما إخفاق.

ولكن محمدًا وحده؛ بأسلوبه، وقوة روحه، وتأييده، ومجاهدته، هو الذي استطاع أن يحطم هذه الأوثان، وأن يردد في الجزيرة العربية؛ شرقها وغربها وشمالها وجنوبها صوت التوحيد، صوت «لا إله إلا الله» «والله أحمد» و «الله الصمد».

وبالقضاء على الأصنام تحرر العقل البشري في هذه الدائرة، أو في هذا المحيط، وانطلق بأقصى طاقته، ليرفع أركام الماضي ويدفع أثقال الجمود والرجعية، ويتقبل الآراء الصالحة والأفكار الناضجة؛ فإذا عجلة الحضارة تسير بخطا حثيثة، وقوى جبارة، وليس بعد هذا ظفر أو تقدم.

الإسلام والسلام:

ومحمد بن عبد الله هو الذي رفع لواء السلام، في عصر لا يعرف إلا القوة، ولا يعتنق إلا مبدأ الحروب في هذا القول الرائع من القرآن الكريم {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

فيقرر كتاب الدعوة مبدأ المسالمة وعدم البدء بالعدوان.

ويصرح بذلك في موضع آخر حين يقول تبارك وتعالى {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}.

وهو رأي سديد لو اعتنقته الدول اليوم لرفرف السلام على ربوعها، ولم نر أثر ذلك التطاحن وهذا التدمير.

وهذا المبدأ الذي يوفق بين الواقعية والمثالية؛ الواقعية التي تعرف طبيعة الفرد وطبيعة الجماعة وما في كل من نزعات عدوانية قد تحدرت إلى هذه الطبيعة منذ أن كان الإنسان الأول، ومنذ أن كانت الجماعة الأولى.

والمثالية التي لا تعرف إلا السلام، ولا تؤمن إلا بدين المحبة الدائمة، والتي يوجه إليها من الواقعية كثير من النقد؛ إذ لو اعتنقت الأمة مبدأها ونزعت سلاحها، فكيف تؤمن حياة الجماعة في الداخل، وكيف ترد عدوان الدول التي تدين بمبدأ القوة؟!

ولدينا الآن أمثلة متعددة لهذه الدول الطامعة، وهؤلاء القادة الذين لا يحلو لهم العيش إلا في جو الحروب المستعرة، والمعارك الدامية؛ ولا تطمئن نفوسهم إلا إذا وقعت أنظارهم على الأشلاء المتناثرة، والدماء الحمراء القانية.

على أن العالم لو اجتمع على المثالية، لوجد في الدعوة الإسلامية معينًا له وسندًا؛ فهو دين السلام إذا اجتمعت الأمم على سلام، والتقت على مبدأ نزع السلاح، وإن كنت أرى والواقع يؤيدني أن هذا من صنع الخيال وكاذب السراب.

والإسلام في هذا الدعوة الموفقة قد وقف موقفًا وسطًا بين الموسوية التي لا تعرف إلا شريعة القوة، والمسيحية التي تتجه وجهة المحبة والسلام.

وفي تاريخ الإسلام مواقف قد يرى فيها المؤرخ العابر جنوحًا إلى مبدأ القوة، ولكن التعمق والتبصر يؤديان إلى أن الظروف والملابسات، والإبقاء على كيان الجماعة هو الذي جعل مُحَمَّد بن عبد الله يقف هذا الموقف، حتى لا تضيع جهوده سدى، ويقضي على الدعوة في مهدها.

من هذه المواقف غزوة «بدر» إذ أراد النبي عليه السلام أن يشعر المشركين بقوة الجماعة المسلمة، وأن يؤدب هؤلاء الذين أخرجوه وإخوانه من ديارهم، وأبعدوهم عن وطنهم؛ ولأن الإسلام يرى أن الإشراك بالله ينبغي أن يقضي عليه؛ سواء بالحكمة والموعظة الحسنة أو بالمجاهدة بحد السيف؛ فالإشراك وعبادة الأوثان نقطة سوداء في تاريخ الإنسانية ينبغي أن تزال وألا يكون لها وجود؛ ويفسر هذا قوله عليه السلام «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابها على الله».

فهل يعد هذا العمل من جانب مُحَمَّد بن عبد الله استعمارًا كما يسميه بعض الأجانب من ذوي الفكر المحدود والتعصب الحاد؟

إن الاستعمار الغربي أو استعمار العهد المعاصر قد برر في أول أمره بأنه عمل من جانب المتحضرين، للأخذ بيد الشعوب المتخلفة، ثم لبس فيما بعد أثوابًا أخرى حين تكشفت دعوته، وبدت على حقيقتها، وأنها استغلال واستبعاد، وحيلولة بين هذه الشعوب المستعمرة وتقدمها نحو الحضارة الحقة.

أما نشر الإسلام، فقد كان الهدف منه تحرير الشعوب من الظلم الذي حاق بها على يد الطغاة والجبابرة، وتخليصها من وصمة الشرك، ودفعها إلى اعتناق المبادئ السامية.

فإذا كان هذا استعمارًا فما أروعه من استعمار!!

ومما يتصل بمبدأ السلام في الإسلام حفاظه على العهود والمواثيق وعدم نقضها، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى أُمَّةٍ}.

وقوله تعالى {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}

وليس هذا بغريب على الأمة العربية؛ فمن خلقها الراكز فيها أن يكون العربي عند كلمته، وألا يلجأ إلى المكر والخديعة والغدر. فهذه سمات الضعفاء من البشر.

الإسلام والعنصرية:

والإسلام دعوة لا تعرف العنصرية، ولا تفرق بين جنس وجنس.

«فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» و «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

وهذا المعنى من الدعوة هو الذي جعل محمدًا يصيح بأبي ذر الغفاري عندما سمع بتعبيره لبلال بأن أمه أعجمية «إنك امرؤ فيك جاهلية».

وكان النبي على حق لأن الإسلام لا يعرف التفرقة في الجنس، فهذه سمة من سمات الجاهلية وعصر الظلمات.

ونلمس هذه الروح في خطاب رب الدعوة، فهو يقول دائمًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} أو يقول {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} ولم يوجه الدعوة في سورة من سور القرآن إلى العرب فلم يقل «يأيها العرب» وهي التفاتة سامية للقضاء على التعصب، وعلى الشعوبية، وعلى العنصرية التي هي مثار النزاع والشقاق في الأمم، والتي لا تبدو ولا تطل برأسها إلا حيث تكون الفتنة، وحيث يكون الضعف والانقسام.

بل إن انهيار الدولة الأموية ما كان إلا لأن خلفاءها قد اعتنقوا مبدأ التعصب للجنس العربي وإبعاد الأجناس الأخرى عن الحكم والسلطان ولاشك أنه بعد امتداد الفتح، ودخول شعوب غير عربية في الإسلام، كان من الحتم أن يغير هؤلاء الولاة سياستهم، وأن يقربوا إليهم الأبناء النابهين من الشعوب الأخرى، وأن يولوهم المناصب الرئيسية، وبخاصة في بلادهم، فنحن نعلم أن هذه البلاد كانت ذات حضارات، وكان بها عقول مفكرة حصيفة، وشخصيات من العسير أن تنحي عن الحكم، وألا يكون لها مكان في الدولة الجديدة، وبخاصة بعد أن أشربت روحهم بمبادئ الإسلام وحذق الكثيرون منهم اللغة العربية، ودرسوا الشريعة الإسلامية.

وقد وجد هؤلاء في الأهداف الإسلامية ما يعينهم على أن يطالبوا بحقوقهم ما داموا مسلمين مؤمنين، وقد نجحوا إلى حد بعيد في إقرار هذا المبدأ عند ما تقوضت دعائم الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية التي اتخذت بغداد قاعدة لها.

بل لعل هذا المبدأ الإنساني هو الذي مكن النشر للدين الإسلامي؛ في أقصى الشمال وأقصى الجنوب، وفي أقصى الشرق وأقصى الغرب، وجعله قبلة الملايين الذين يتجاوزون الآن الخمسمائة، أو ما يقرب من سبع سكان العالم.

هذا إلى ما دعا إليه النبي مُحَمَّد صلوات الله عليه من الإيمان بالله، المقترن دائمًا بالعمل الصالح حتى يرد إلى البشرية اطمئنانها، وينزع عنها أحقادها وأطماعها الخسيسة، ويوجهها التوجيه الكريم، ويهيئ لها الحياة الراضية المرضية {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}.

ولن يرد جموح النفس البشرية إلا إذا سمعت أمثال هذه الآيات السابقة أو قوله تبارك وتعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}.

محمد وتعدد زوجاته :

ومُحَمَّد بن عبد الله قد ضرب بسلوكه الرفيع، المثل الأعلى لأبناء المسلمين؛ فقد كان مثال الوفاء والتضحية والصبر وعزة النفس ومضاء العزيمة وقوة الخلق وحب الله والتفاني في عبادته؛ ولا علينا مما ينعته به الناعتون من المتعصبين، من أنه كان أبعد الناس عن أن يكون نبيًا، واستدلوا على ذلك بتعدد زوجاته.

وهذا الموضوع قد رد عليه ردًا مقنعًا كثير من المشتغلين بالدراسات الإسلامية والمتحدثين عن السيرة النبوية؛ ولعل هذه الدولة التي أقامها مُحَمَّد، ووضع لها الأسس الركينة وهذا الجهاد المتصل، وهؤلاء الأعداء الذين يتربصون به وبدينه الدوائر؛ لعل كل أولئك، وما بذله في سبيل نشر دعوته؛ حتى هيأ لها الخلود، وضمن لها البقاء فيه خير رد على أمثال هؤلاء الناقدين الحاقدين.

إن محمدًا لم يكن شهوانيًا كما يدعي هؤلاء المدعون، ولكنه كان روحانيًا، أو بتعبير أدق كان إنسانيًا يؤكد معنى الإنسانية، ويبعد عن الفكر البشري أي معنى من معاني «الرهبانية» التي تؤدي حتما إلى الفناء.

فهو في تعدد زوجاته كان مشرعًا من ناحية، ليقضي على عادات متأصلة، وكان إنسانيًا من ناحية أخرى ليشمل بالرعاية سيدة من السيدات الأسيرات كان يسيئها أن تقع في قبضة لا ترحم ضعفها، أو لا تعرف لها قدرها، وقد كانت بالأمس سيدة قومها؛ وكان واقعيًا من ناحية أخرى ليؤصل للدعوة، ويمكن للرسالة بالأسلوب السائد في ذلك العصر، أسلوب توثيق الروابط بالإصهار إلى بعض القبائل القوية، الواغلة في الجاهلية الأولى.

ومن أجل هذا كله جعل هذا التعدد خصوصية من خصوصياته، لا تنتقل إلى غيره من المسلمين، ومما يقوى ما ذهبت إليه أن هذا التعدد لم يصدر عنه إلا بعد سن الخمسين وإلا في الحقبة التي أخذ الدين فيها ينتشر ويقوى.

الإسلام والتشريع:

وقد رمى التشريع الإسلامي بأن فيه نوعًا من القسوة على المنحرفين؛ فهو يحكم بالرجم والجلد وقطع اليد والقصاص، في حالات الزنا والسرقة والقتل، ولكن هذ الرمي من غير تبصر، والنبي عليه السلام قد وضع شروطًا يستحيل أو يتعذر في أكثر الأحيان تحققها حتى يحكم على مرتكب الكبيرة بواحد من هذه الأحكام؛ ففي حديث عنه أنه قال «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة.»

ومن ذلك ما روى من أن أعربيًا يسمى ما عز أقر بين يدي الرسول عليه السلام بالزنا، فلقنه الرجوع بأن قال له: لعلك قبلتها. لعلك مسستها.

وقال عليه الصلاة والسلام لتلك المرأة قولي «لا».

فأي إنسانية أحب من هذه الإنسانية!!

وأي حكمة أروع من حكمة المشرع الإسلامي الأول!!

إنه لما يؤسف أن يتلقف بعض الأغرار والذين في قلوبهم مرض هذه الأحكام، ويهونون بها من شأن الدين الإسلامي، ويقولون: إنه غير صالح لكل زمان، ولا يمكن تطبيقه في كل مكان.

ولو تعمقوا الأمور، ورجعوا إلى مبادئ الإسلام الأصلية، وتأملوا أسبابها، ولم أقيمت؟ لكفكفوا من غلوائهم وعرفوا التشريع على حقيقته ووقفوا على روح القانون الإسلامي.

فهذا الأعرابي يعترف بجريمة الزنا، «والاعتراف سيد الأدلة» كما يقول رجال القانون المحدثون ولكن النبي عليه السلام يوحى إليه بأن يرجع عن هذا الاعتراف حتى لا يجلد أو يرجم.

لم؟ لأن النبي عليه السلام يخشى أن يكون اعترافه راجعًا إلى سبب أو لآخر؛ فقد يكون مدفوعًا إلى ذلك دفعًا، أو يكون في حال غير طبيعية، أو أن النبي عليه السلام يرى في هذا الاعتراف ضررًا أشد من الإخفاء والتستر، فعنه تتولد الذلة والانتقام وشيوع الفاحشة، وكلها أمور لها آثارها العميقة لا في حاضر الأسرة أو الجماعة بل في مستقبلها.

ويضع التشريع الإسلامي قاعدة عامة هي «الضرورات تبيح المحظورات» فيعتمد عليها كبار الصحابة في الإغضاء عن قطع اليد في السرقة، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ في عام المجاعة.

فإنه لمن الإثم أن نعتبر السرقة جرمًا في «المجاعات» أو في المجتمعات التي يتحكم فيها الإقطاع، وتستبد الرجعية؛ فإذا الجوع والعرى والفاقة تفتك بالأكثرية فيها.

بل أرى أن المشرع الإسلامي قصد بالسارق متعمد السرقة والسلب والإفساد في الأرض والبغي؛ أما السارق الذي يدفعه مرض السرقة مثلا

إلى أن يسرق أو الحاجة الملحة «والجوع كافر» كما يقولون فليس بالسارق الذي تقطع يده ليكون عبرة وعظة لغيره.

الجانب الإنساني في محمد:

وبعد فقد طوفنا بالقارئ في مجالات متعددة، ولم نشأ أن نصدر هذا البحث الموجز بالحديث عن خلق النبي الكريم ومدى إنسانيته؛ حتى لا يقع في وهمه أننا نكتب دفاعًا عن عقيدة نعتنقها، بل تركنا المبادئ هي التي تتحدث عن الجانب الإنساني في الدعوة المحمدية، ولكنه يكون من التقصير الشديد أن نترك الإشارة إلى هذا الخلق دون أن نلمح إليه، ونقف عنده وقفة قصيرة.

فالنبي مُحَمَّد كان مؤمنًا، وكان وفيًا، وكان عطوفًا، وكان رحيما، ويمكن أن نستشف هذه السمات من الروح التي ظهرت واضحة قوية في أنصاره ومريديه ومعتنقي فكرته. قد يقال إن أبا بكر أو عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان اندفعوا إلى تأييد هذا الدين الجديد ليكون لهم مكان الصدارة في الدولة الجديدة الناشئة، ولكن ماذا نقول أمام التأييد الرائع الذي ظهر صداه في أنفس الأيفاع من القرشيين ممن لم يتجاوزوا السابعة عشرة من أعمارهم؟

ماذا نقول في الأرقم بن الأرقم الذي انضم إلى الدعوة، ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ثم وهب داره لتكون مركزًا للدعوة السرية التي بدأ بها النبي عليه السلام من غير أن يحفل بما يترتب على ذلك إذا انكشف

الأمر، وعرف القرشيون انضمامه ثم هبة داره لتكون مصدر إشعاع للدين الجديد؟.

وماذا نقول في الزبير بن العوام الذي آمن بمحمد، وهو في الثامنة من عمره على أرجح الروايات ولم يتراجع، بعد أن عرف عمه نوفل حقيقة أمره، فاضطهده اضطهادًا مرًا بل اضطهده القرشيون الغلاة حتى أريد على الهجرة إلى الحبشة. وقد كان بطلًا من أبطال «بدر» وهو الذي قال فيه النبي عليه السلام بعد أن رأى على يديه مصرع أحد الأبطال المشركين حين كان يبارزه «لكي نبي حواري، وحواري الزبير».

وهو الذي عرفته مصر فيما بعد حين دفعته جرأته إلى تسور سورها المحصن؛ ليفاجئ المعتصمين من جند الرومان فإذا هم لا يجدون مفرًا من التسليم؟

بل ماذا نقول أمام استبسال طلحة بن عبيد الله الذي انضم هو الآخر إلى الدعوة، وسنه لم تجاوز الثانية عشرة حين وقف إلى جانب النبي عليه السلام في غزوة أحد، ليقيه، ويدفع عنه سهام المشركين «حتى شلت أصبعه» ووقع النبي عليه السلام في إحدى الحفر فحمله على ظهره حتى صعد به صخرة عالية، وتقول الرواية أن طلحة أصيب في هذه الغزوة بأكثر من سبعين طعنة حتى نزف منه الدم، وأصيب بأغماءة، وما أن أفاق حتى سأل عن النبي (صلوات الله عليه) فقيل له. بخير. فقال «الحمد لله. كل مصيبة بعده جلل».

بل يمكننا أن نعد من هذه الطليعة المتوثبة أمثال عبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص بطل القادسية، وأسماء بنت أبي بكر زوج الزبير بن العوام، وفاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب عم النبي عليه السلام، والتي هاجرت إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين، ثم إلى المدينة فجمعت بين الهجرتين، أو بين الكفاحين، أو بين الشرفين.

مثل هذه الروح التي بدت من المريدين والأنصار لن تكون الروح التي تلتف حول جافي الطبع غليظ القلب، بل هي الروح التي عبر عنها سبحانه وتعالى في محكم كتابه بقوله {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}.

وهو الخلق الذي قال فيه ربه {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}

بل هو الخلق الذي سواه إلهه وإلهنا بما كان يظهر له من عتب إذا بدا عليه أدنى تجاوز، بأن يقول له مثلا {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى}.

وهو الخلق الوفي الذي أراده على أن يذكر بالخير زوجه خديجة التي كانت ساعده الأيمن في أحلك أيام الدعوة أمام زوجه عائشة حتى تعتب عليه بقولها، هل كانت إلا عجوزًا بد لك الله خيرًا منها؟ فيرد مغضبًا «لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني

الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

وهو الذي يشع الإيمان من نفسه حين يستقبل القبلة مصليًا أو متهجدًا أو حين تتأزم الأمور وتشتد الكروب.

وهو الذي يتفجر الحنان من قلبه حين تلم به الملمات، ويرزأ في ولده أو في عزيز عليه.

وهو الإنسان الذي ترفعه إنسانيته إلى أعلى مراتب النبل والخلق الرفيع؛ فهو يتواضع ولا يتضع، وهو يشارك في الحياة لأنه بشر، ولأنه قدوة، وهو يصبر ويكافح ويلقى الأذى، لأنه وضع لنفسه برنامجًا في الحياة فأنفذه على خير ما يكون؛ حتى قابل ربه بعد أن جاوز الستين من عمره في حساب الزمن، ولكنها تعد قرونًا وقرونًا، وأجيالا وأجيالًا في عداد الخلود والبقاء.

وكيف لا يكون كذلك؟ ولا تزال البشرية تستمد من نوره، وتستلهم من آيه، وتستوحي من روحه!!

بل كيف لا يكون كذلك؟! وهو خاتم الأنبياء والمرسلين وهادي البشرية إلى يوم الدين!!

الفهرس